

حجة الاسلام أبي حامد الغزالي

المَقْصَدُ الْأُسْنَى
شَرْحُ
الْبَهَاءِ الْحُسْنَى

محمود زيجو

قَرَأَهُ وَخَرَّجَ
أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

حجة الاسلام أبي حامد الغزالي

المقصد الأسنى

شرح

أبي عبد الله الحسيني

قرأه وخرّج أحاديثه وعلق عليه

محمود بجو

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة

ولد الغزالي في منتصف القرن الخامس الهجري، وهو عصر مليء بالعجائب، مليء بمخاضات من الشيع والفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية. في هذا الجو الذي كانت المذاهب والنحل والشيع تتقاتل وتتطاحن حيث ضعف سلطان الدين، وسادت المذاهب الفلسفية، والفرق الدينية، وحاول العلماء أن يتصدوا لهذه التيارات ولكنهم لم يلبثوا أن فشلوا، وكان من أكبر أسباب فشلهم ما كانوا فيه من تفرق، وما كان بين جماعاتهم من خصومة ولدد. فقد كان لكل منهم عصبية وأنصار وكان هؤلاء الأنصار يتطاحنون ويتمزقون، فالجرب لم تكن خافية بين الأشعرية والمعتزلة، وبين الباطنية والسنة. في هذا الجو الغريب التأثر، وبين تلك المعارك الطاحنة نشأ الغزالي الشائر، فكانت نشأته على هامش بركان، وكانت معارفه حارة لأنها ولدت بين اللهب. درس الغزالي كل ما في عصره من خير وشر، فقد اندفع في زحام الفكر جباراً متوغلاً غير هيأ ولا متحفظ كما قال عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال»، وسرعان ما أصبح شيخاً يشار إليه بالبنان، وأكسب الطلاب على دروسه وأخذت شهرته تطبق الآفاق، وهنا تعرض لأزمة نفسية أبعدته عن هذا الجو فاعتزل الناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون، ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع لا طائل منها، فشهد أن الإسلام قد انتقل من القلوب إلى العقول، فانقلب إلى ملاحات منطقية لفظية، ومجادلات فقهية جامدة، فأخذ يحمل عليهم حملات عنيفة مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء، وأن من شأنه أن يزعرع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول، وأعلن حرباً شعواء على الفلاسفة في كتابه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مطبعة الصباح

دمشق - هاتف : ٢٢٢١٥١٠

عدد النسخ (١٠٠٠)

«تهافت الفلاسفة» وهذته تأملاته في عزله إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية، وحتى تكون محبة الله هي الدافع الأساسي لكل ما يصدر عن المسلم من قول وفعل، وألف على هذا الهدى كتابه «إحياء علوم الدين».

وقد بنى الغزالي أركان التصوف السني بعيداً عن الاتحاد والحلول، وقد بدا جلياً هجومه العنيف على هذا النوع من التصوف في كتابه هذا «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» إذ يفند فيه فكرتي الاتحاد والحلول، ففند بذلك مزاعم الذين حاولوا أن ينسبوا إليه مثل هذه الأفكار كالدكتور أبي العلا عفيفي في مقدمة تحقيقه لكتاب «مشكاة الأنوار» للإمام الغزالي.

فالغزالي لا يمت إلى التصوف الفلسفي بأية صلة وبهاجم عقائدهم المبنية على فكرتي الاتحاد والحلول.

وقد حرصت على نشر هذا الكتاب القيم لما فيه من فوائد جمّة، ولما فيه من تفنيد لمزاعم القائلين بأن الغزالي قال بالاتحاد أو الحلول، فكتابه هذا خير شاهد على بطلان تلك المزاعم والدعاوى الخائفة.

كانت قوة الغزالي التي خلّدت كـ (حجة للإسلام)، أنه استطاع أن يكون ترسانة فكرية تقف في وجه التيارات المتدفقة من المحاورات الفلسفية، والمناظرات الجدلية والمنازعات الفقهية، وأن يجعل القوة الإسلامية المناهضة لتلك الزوبعة تتركز فيه وتمثل في تعاليمه وصيحاته المستمدة من الكتاب والسنة.

انصرف الغزالي لتكوين هذه الترسانة الفكرية التي حافظت على عقيدة الأمة عندما لم يحالفه الحظ لتكوين ترسانة عسكرية تلوذ عن حياض الأمة ومقدساتها.

فرحم الله الغزالي في الأولين ورحمه في الآخرين.
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً.

دمشق ٦ شوال ١٤١٩

٢٣ / ١ / ١٩٩٩

محمد بيجو

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بكبرياته وعظمته، المتوحد بتعاليه وصمديته^(١)، الذي قصّ أجنحة العقول دون حمى عزته، ولم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته^(٢)، وقصّر السنة الفصحاء عن الثناء على جمال حضرته، إلا بما أثنى به على نفسه وأحصى من اسمه وصفته، والصلاة والسلام على محمد خير خلقه، وعلى آله وأصحابه وعترته.
أما بعد:

فقد سألتني أخ في الله عز وجل يتعّين في الدين إجابته؛ شرح معاني أسماء الله الحسنى. وتواردت عليّ أسئلته تترى^(٣)، فلم أرل أقدم فيه رجلاً وأوخر أخرى، تردداً بين الانقياد لاعتقائاته، قضاء لحق إحقاقه، وبين الاستعفاء عن التماسه، أخذاً بسبيل الحذر، وعدولاً عن ركوب متن الخطر، واستقصاراً لقوة البشر، عن درك هذا الوطر.
وكيف لا وللصبر عن خوض مثل هذه الغمرة صارفان:

أحدهما: أنّ هذا الأمر في نفسه عزيز المرام، صعب المنال، غامض المدرك؛ فإنّه في العلوّ في الذروة العليا والمقصد الأقصى، الذي تتحرّر الأبواب فيه، وتنخفض أبصار العقول دون مبادئه^(٤) فضلاً عن أفاضيه^(٥). ومن أين للقوى البشرية أن تسلك في صفات الربوبية سبيل البحث والفحص والتفتيش! وأنّي تطيق نور الشمس أبصاراً الخفافيش!

(١) الصمد: السيد الذي يصمد إليه في الأمر. وصمد قصد معتمداً عليه قصده.

(٢) العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث عن سر ذات السر إشراك، وقال الصديق رضي الله عنه: (بما من غاية معرفته القصور عن معرفته) وقال: (سبحان من غاية معرفته عجز الإدراك عن معرفته).

(٣) تترى: تتوالى وتتابع.

(٤) مبادئه: أوائله.

(٥) أفاضيه: نهاياته.

والثاني: أنَّ الإفصاح عن كُنْهِ الحقِّ فيه يكاد يخالف ما سبق إليه الجماهير، وفطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير؛ وجناب الحقِّ يَجَلُّ عن أن يكون مَشْرَعاً لكلِّ وارد، أو يتطلَّع إليه إلاَّ واحد بعد واحد، ومهما عظم المطلوب قلَّ المساعد^(١). ومن خالط الخلق جدير بأن يتحامى، لكن من أبصر الحقَّ عسير عليه أن يتعامى. ومن لم يعرف الله عزَّ وجلَّ فالتسكوت عليه حتم، ومن عرفه فالصمت له حَزْم، ولذلك قيل: من عرف الله تعالى كلَّ لسانه.

لكن غَيْرَ في وجه هذه الأعذار صدقُ الاقتضاء مع شدة الإصرار، فأسأل الله، عزَّ وجلَّ، أن يسهِّل الصواب، ويجزل الثواب، بمتَّه ولطفه وسعة جوده، إنَّه الكريم الجواد، الرؤوف بالعباد.

(١) هذا عجز بيت قاله المتن:

وحيد من الخلان في كل بلدة

انظر ديوانه ج ١ ص ٣٩٣ بشرح البرقوقي.

إذا عظم المطلوب قل المساعد

صدر الكتاب

نرى أن نقسم الكلام في الكتاب إلى ثلاثة فنون:

الفن الأول: في السوابق والمقدمات.

الفن الثاني: في المقاصد والغايات.

الفن الثالث: في اللواحق والتكميلات.

وفصول الفن الأول تلتفت إلى المقاصد التفات التمهيد والتوطئة، وفصول الفن الثاني تشتمل على بيان معاني أسماء الله الحسنى، وفصول الفن الثالث تنعطف عليها انعطاف التَّعَمُّ والتَّكْملة. ولباب المطلب ما تنطوي عليه الواسطة.

أما الفن الأول: فيشتمل على بيان حقيقة القول في الاسم والمسمى والتسمية، وكشف ما وقع فيه من الغلط لأكثر الفرق؛ وبيان أنَّ ما يتقارب معناه من أسماء الله تعالى، كالعظيم والجليل والكبير، هل يجوز أن يُحمل على معنى واحد فتكون هذه الأسماء مترادفة، أم لا بدَّ وأن تختلف معانيها؟ وبيان أنَّ الاسم الواحد الذي له معنيان، هل هو مشترك بالإضافة إلى المعنيين، يحمل عليهما حمل العموم على مسمياته أم يتعين حمله على أحدهما؟ وبيان أنَّ للعبد حظاً من معنى كلِّ اسم من أسماء الله تعالى.

الفن الثاني: يشتمل على بيان معاني أسماء الله تعالى التسعة والتسعين؛ وبيان أنَّ حملتها كيف ترجع إلى ذات وسبع صفات عند أهل السنة؛ وبيان أنَّها كيف ترجع، على مذهب المعتزلة والفلاسفة، إلى ذات واحدة لا كثرة فيها.

الفن الثالث: يشتمل على بيان أنَّ أسماء الله تعالى تزيد على تسعة وتسعين نصاً وتوقيفاً؛ وبيان فائدة الإحصاء والتخصيص مئة إلا واحداً، وبيان الرخصة في جواز وصف الله سبحانه وتعالى بكلِّ ما هو متَّصف به بمعناه من صفات المدح

وبكل ما لا يوهم معناه نقصاً وإن لم يرد نص في هذا كله ولا إذن ولا توقيف، إذ لم يرد فيه منع؛ فأما ما أشعر معناه بنقص، فلا يقال في حق الله تعالى البتة، إلا أن يرد فيه إذن، فيقال من حيث الإذن ويؤول على ما يجب في حق الله تعالى، وأنه قد يمنع في حق الله تعالى إطلاق لفظ، فإذا قرن به قرينة جاز إطلاقه، وأنه يدعى سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنی كما أمر^(١)، حتى إذا جاوزنا الأسماء إلى أن ندعوه بصفاته دُعي بأوصاف المدح والجلال فقط، ولا يدعى بكل ما يجوز أن يوصف ويخبر به عنه من الأوصاف والأفعال إلا أن يكون فيه مدح وإجلال على ما ذكرناه، ونذكره بعد في موضعه مفسراً إن شاء الله تعالى.

الفن الأول في السوابق والمقدمات وفيه فصول أربعة

- الفصل الأول: في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية
- الفصل الثاني: في بيان الأسامي المتقاربة في المعاني، وأنها هل يجوز أن تكون مترادفة أم لا بد أن تختلف مفهوماتها.
- الفصل الثالث: في الاسم الواحد الذي له معان مختلفة وهو مشرك بالإضافة إليها.
- الفصل الرابع: في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه.

(١) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الْبَيْنَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في أَسْمَائِهِ سُبُحْرُونَ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٨٠﴾

الفصل الأول

في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية

قد كثر الخائضون في الاسم والمسمى وتشعبت بهم الطرق، وزاغ^(١) عن الحق أكثر الفرق. فممن قائل: إن الاسم هو المسمى ولكنه غير التسمية. ومن قائل: إن الاسم غير المسمى ولكنه هو التسمية. ومن ثالث، معروف بالخذق^(٢) في صناعة الجدل والكلام، يزعم أن الاسم قد يكون هو المسمى كقولنا عن الله تعالى: إنه ذات وموجود. وقد يكون غير المسمى، كقولنا: إنه خالق ورازق، فإنهما يدلان على الخلق والرزق، وهما غيره. وقد يكون بحيث لا يقال: إنه المسمى ولا هو غيره؛ كقولنا: إنه عالم وقادر، فإنهما يدلان على العلم والقدرة، وصفات الله لا يقال إنها هي الله تعالى ولا إنها غيره.

والخلاف يرجع إلى أمرين:

أحدهما: أن الاسم هل هو التسمية أم لا؟

والثاني: أن الاسم هل هو المسمى أم لا؟

والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة. ولا سبيل إلى كشف الحق فيه إلا ببيان معنى كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة مفرداً، ثم بيان معنى قولنا: هو هو، ومعنى قولنا: هو غيره. فهذا منهج الكشف للحقائق، ومن عدل عن هذا المنهج لم ينجح أصلاً^(٣).
فإن كل علم تصديقي، أعني علم ما يتطرق إليه التصديق أو التكذيب، فإنه، لا محالة، لفظة قضية تشتمل على موصوف وصفة، ونسبة لتلك الصفة إلى

(١) زاغ عن الحق: مال عنه وحاد.

(٢) الخذق: تعلم الشيء ومهر فيه.

(٣) فإني يلزم فيه أهل الحق أن الاسم هو المسمى نفسه أو صفة متعلقة به، وأنه غير التسمية. (التحفيد) ص ٢٥٨ للبلقاني.

الموصوف. فلا بد أن تتقدم عليه المعرفة بالموصوف وحده على سبيل التصور لحده وحقيقته، ثم المعرفة بالصفة وحدها على سبيل التصور لحدها وحقيقتها، ثم النظر في نسبة تلك الصفة إلى الموصوف، أنها موجودة له أو منفية عنه. فمن أراد مثلاً أن يعلم أن الملك قديم أو حادث، فلا بد أن يعرف أولاً معنى لفظ الملك، ثم معنى القديم والحادث، ثم ينظر في إثبات أحد الوصفين للملك أو نفيه عنه. فلذلك لابد من معرفة معنى الاسم ومعنى المسمى ومعنى التسمية، ومعرفة معنى الهوية والغيرية^(١) حتى يتصور أن يعرف بعد ذلك أنه هو أو غيره.

فنعول في بيان حد الاسم وحقيقته: إن للأشياء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ووجوداً في اللسان^(٢).

أما الوجود في الأعيان: فهو الوجود الأصلي الحقيقي.

والوجود في الأذهان: هو الوجود العلمي الصوري.

والوجود في اللسان: هو الوجود اللفظي الدليلي.

فإن السماء، مثلاً، لها وجود في عينها ونفسها، ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا لأن صورة السماء تنطبع في أبصارنا ثم في خيالنا؛ حتى لو عدمت السماء، مثلاً، وبقينا، لكانت صورة السماء حاضرة في خيالنا. وهذه الصورة هي التي يعبر عنها بالعلم؛ وهو مثال المعلوم، فإنه محاك للمعلوم ومواز له، وهي كالصورة المنطبعة في المرآة، فإنها محاكية للصورة الخارجة المقابلة لها. فإذن العلم إنما هو مثال المعلوم في الذهن.

وأما الوجود في اللسان: فهو اللفظ المركب من أصوات قطعت أربع

تقطيعات، يعبر عن القطعة الأولى بالسين، وعن الثانية بالميم، وعن الثالثة بالالف، وعن

(١) الهوية: هو هو، الغيرية: هو غيره.

(٢) كذا قال في فصل التفرقة، وجعل مراتب الوجود خمسة: الوجود الذاتي والحسي والخيالي والعقلي والشبهي. انظره

الرابعة بالهمزة، وهو قولنا: سماء، فالقول دليل على ما هو في الذهن، وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له. ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان، ولو لم ينطبع صورة في الأذهان لم يشعر بها إنسان، ولو لم يشعر بها الإنسان لم يعبر عنها باللسان. فإذا، اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة، لكنها متطابقة متوازية، وربما تلتبس على البليد، فلا يميز البعض منها عن البعض.

وكيف لا تكون هذه الوجودات متميزة، ويلحق كل واحد منها خواص لا تلتحق الأخرى. فإن الإنسان، مثلاً، من حيث أنه موجود في الأعيان، يلحقه أنه نائم ويقظان، وحى وميت، وقائم ومائى وقاعد، وغير ذلك. ومن حيث أنه موجود في الأذهان، يلحقه أنه مبتدأ وخبر، وعام وخاص، وجزئى وكلّى وقضية، وغير ذلك. ومن حيث أنه موجود في اللسان، يلحقه أنه عربي وعجمي وتركى وزنجي، وكثير الحروف وقليلها، وأنه اسم وفعل وحرف، وغير ذلك. وهذا الوجود يجوز أن يختلف بالأعصار ويتفاوت في عادة أهل الأمصار. فأما الوجود الذي في الأعيان والأذهان فلا يختلف بالأعصار والأمم البتة.

فإذا عرفت هذا، فدع عنك الآن الوجود الذي في الأعيان والأذهان، وانظر في الوجود اللفظي، فإن غرضنا يتعلق به. فنقول:

الألفاظ عبارة عن الحروف المقطعة الموضوعة بالاختيار الإنساني للدلالة على أعيان الأشياء. وهي منقسمة إلى ما هو موضوع أولاً، وإلى ما هو موضوع ثانياً.

أما الموضوع أولاً: فكقولك: سماء وشجر وإنسان وغير ذلك.

وأما الموضوع ثانياً: فكقولك: اسم وفعل وحرف وأمر ونهي ومضارع. وإنما قلنا: إنه موضوع وضعاً ثانياً لأن الألفاظ الموضوعة للدلالة على الأشياء منقسمة إلى ما يدل على معنى في غيره فيسمى حرفاً، وإلى ما يدل على معنى في نفسه. وما يدل على معنى في نفسه ينقسم إلى ما يدل على زمان وجود ذلك المعنى،

ويسمى فعلاً كقولك: ضرب يضرب، وإلى ما لا يدل على الزمان، ويسمى اسماً، كقولك: سماء وأرض.

فأولاً وضعت الألفاظ دلالات على الأعيان، ثم بعد ذلك وضع الاسم والفعل والحرف دلالات على أقسام الألفاظ، لأن الألفاظ بعد وضعها أيضاً صارت موجودات في الأعيان وارتسمت صورها في الأذهان، فاستحقت أيضاً أن يدل عليها بحركات اللسان.

ويتصور الألفاظ أن تكون موضوعة وضعاً ثالثاً ورابعاً، حتى إذا قسم الاسم إلى أقسام، وعرف كل قسم باسم، كان ذلك الاسم في الدرجة الثالثة، كما يقال، مثلاً: الاسم ينقسم إلى نكرة وإلى معرفة، وغير ذلك. والغرض من هذا كله أن تعرف أن الاسم يرجع إلى لفظ موضوع وضعاً ثانياً.

فإذا قيل لنا: ما حدّ الاسم؟

قلنا: إنه اللفظ الموضوع للدلالة، وربما نضيف إلى ذلك ما يميزه عن الحرف والفعل.

وليس تحرير الحد من غرضنا الآن، إنما الغرض أن المراد بالاسم المعنى الذي هو في الرتبة الثالثة، وهو الذي في اللسان دون الذي في الأعيان والأذهان.

فإذا عرفت أن الاسم إنما يعنى به اللفظ الموضوع للدلالة، فاعلم أن كل موضوع للدلالة فله واضح وموضع وموضوع له، يقال للموضوع له: مسمى، وهو المدلول عليه من حيث أنه يدل عليه. ويقال للواضح: المسمى، ويقال للوضع: التسمية. يقال: سمي فلان ولده إذا وضع لفظاً يدل عليه، ويسمى وضعه تسمية. وقد يطلق لفظ التسمية على ذكر الاسم الموضوع، كالذي ينادي شخصاً ويقول: يا زيداً فيقال: سماه. فإن قال: يا أبا بكر! يقال: كناه. وكان لفظ التسمية مشتركاً بين وضع الاسم وبين ذكر الاسم، وإن كان الأشبه أنه أحق بالوضع منه بالذكر.

ويجري الاسم والتسمية والمسمى بحرى الحركة والتحريك والمحرك والمحرك، وهذه أربعة أسام متباعدة تدلّ على معان مختلفة . فالحركة تدلّ على النقلة من مكان إلى مكان، والتحريك يدلّ على إيجاد هذه الحركة، والمحرك يدلّ على فاعل الحركة، والمحرك يدلّ على الشيء الذي فيه الحركة مع كونه صادراً من فاعل، لا كالمتحرك، الذي لا يدلّ إلا على المحلّ الذي فيه الحركة ولا يدلّ على الفاعل.

فإذا ظهر الآن مفهومات هذه الألفاظ، فلينظر هل يجوز أن يقال فيها: إنّ بعضها هو البعض، أو يقال: إنه غيره؟

ولا يفهم هذا إلا بمعرفة معنى الغيرية والهوية.

وقولنا: هو هو، يطلق على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول يضاهي قول القائل: الخمر هي العَقَار، والليث هو الأسد. وهذا يجري في كلّ شيء هو واحد في نفسه وله اسمان مترادفان لا يختلف مفهومهما البتّة، ولا يتفاوتان بزيادة ولا نقصان، وإنما تختلف حروفهما فقط. وأمثال هذه الأسماء تسمّى مترادفة.

الوجه الثاني يضاهي قول القائل: الصارم هو السيف، والمهند هو السيف، وهذا يفارق الأول. فإن هذه الأسماء مختلفة المفهومات وليست مترادفة، لأنّ الصارم يدلّ على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدلّ على السيف من حيث نسبته إلى الهند. والسيف يدلّ دلالة مطلقة من غير إشارة إلى غير ذلك. وإنما المترادفة هي التي تختلف حروفهما فقط ولا تفاوت بزيادة ولا نقصان. فليس هذا الجنس متداخلاً، إذ السيف داخل في مفهوم الألفاظ الثلاثة وإن كان بعضها يشير معه إلى زيادة.

الوجه الثالث، أن يقول القائل: الثلج أبيض بارد. فالأبيض والبارد واحد، والأبيض هو البارد، فهذا أبعد الوجوه. ويرجع ذلك إلى وحدة الموضوع الموصوف بالوصفين، معناه أنّ عيناً واحدة موصوفة بالبياض والبرودة.

وعلى الجملة، فقولنا: هو هو، يدلّ على كثرة لها وحدة من وجه. فإنّه إذا لم يكن وحدة لم يمكن أن يقال: هو وهو واحد، وما لم يكن كثرة لم يكن هو هو، فإنّه إشارة إلى شيئين.

فلنرجع إلى غرضنا، فنقول: مَنْ ظنّ أنّ الاسم هو المسمى، على قياس الأسماء المترادفة، كما يقال: الخمر هي العَقَار، فقد أخطأ خطأ، لأنّ مفهوم المسمى غير مفهوم الاسم، إذ بينا أنّ الاسم لفظ دالّ والمسمى مدلول، وقد يكون غير لفظ، ولأنّ الاسم عربيّ وعجميّ وتركّي، أي موضوع العرب والعجم والترك، والمسمى قد لا يكون كذلك. والاسم إذا سئل عنه، قيل: ما هو؟ والمسمى إذا سئل عنه، رُعا قيل: من هو؟ كما إذا حضر شخص فيقال: ما اسمه؟ فيقال: زيد، وإذا سئل عنه، قيل: من هو؟ وإذا سُمّي التركي الجميل باسم الهنود، قيل: اسم قبيح ومسمى حسن. وإذا سُمّي باسم كثير الحروف، ثقيل المخارج، قيل: اسم ثقيل ومسمى خفيف. والاسم قد يكون مجازاً، والمسمى لا يكون مجازاً. والاسم قد يدلّ على سبيل التفاضل. والمسمى لا يتبدّل. وهذا كله يعرفك أنّ الاسم غير المسمى. ولو تأملت وجدت فروقاً كثيرة غير ذلك، ولكنّ البصير يكفيه اليسير، والبليد لا يزيده التكثير إلاّ تحيراً.

وأما الوجه الثاني، وهو أن يقال: الاسم هو المسمى، على معنى أنّ المسمى مشتق من الاسم ويدخل فيه كما يدخل السيف في مفهوم الصارم، فهذا إن قيل به فيلزم عليه أن يكون التسمية والمسمى والاسم والمسمى كله واحداً، لأنّ الكلّ مشتق من الاسم ويدلّ عليه. وهذا مجازفة في الكلام. وهو كقول القائل: الحركة والتحريك والمحرك واحد، إذ الكلّ مشتق من الحركة، وهو خطأ. فإنّ الحركة تدلّ على النقلة من غير دلالة على المحلّ والفاعل والفعل، والمحرك يدلّ على فاعل الحركة، والمحرك يدلّ على محلّ الحركة مع كونه مفعولاً، بخلاف المتحرك، فإنّه يدلّ على محلّ الحركة ولا يدلّ على كونه مفعولاً، والتحريك يدلّ على فعل

الحركة من غير دلالة على الفاعل والمحلّ. فهذه حقائق متباعدة وإن كانت الحركة غير خارجة عن جميعها.

ولكن للحركة حقيقة في نفسها تعقل وحدها، ثم تعقل نسبتها إلى فاعل. وهذه الإضافة غير المضاف، إذ الإضافة تعقل بين شيئين والمضاف قد يعقل وحده، وقد يعقل نسبته إلى المحلّ وهو غير نسبته إلى الفاعل، كيف ونسبة الحركة إلى المحلّ واحتياجها إليه ضروري، ونسبتها إلى الفاعل نظري؟ أعني به الحكم بوجود النسبتين دون التصوّر. فكذلك الاسم له دلالة، وله مدلول وهو المسمّى، ووضعه فعل مختار وهو التسمية، ثم ليست هذه المداخلة من قبيل دخول السيف في مفهوم الصارم والمهتد: لأنّ الصارم سيف بصفة، وكذا المهتد، فالسيف داخل فيه؛ وليس المسمّى اسماً بصفة، ولا التسمية اسماً بصفة، فلا يصحّ فيه هذا التأويل.

وأما الوجه الثالث الذي يرجع إلى اتحاد المحلّ مع تعدّد الصفة، فهو أيضاً، مع بعده، غير جار في الاسم والمسمّى ولا في الاسم والتسمية، حتّى يقال: إنّ شيئاً واحداً موضوع لأن يسمّى اسماً ويسمّى تسمية، كما كان في مثال الثلج، إذ هو معنى واحد موصوف بالبارد والأبيض. وإلاّ هو كقول القائل: الصديق، رضي الله عنه، هو ابن أبي قحافة، لأنّ تأويله أنّ الشخص الذي وُصف بأنّه صديق هو الذي نُسب بالولادة إلى أبي قحافة. فيكون معنى الـ هو هو اتحاد الموضوع مع القطع بتباين الصفتين. فإنّ مفهوم الصديق، رضي الله عنه، غير مفهوم بنوّة أبي قحافة.

فالتأويلات التي تطلق عليها هو هو غير جارية في الاسم والمسمّى وفي الاسم والتسمية البتّة، لا حقيقتها ولا مجازها. والحقيقة من جملتها ما يرجع إلى ترادف الأسماء، كقولنا: الليث هو الأسد، بشرط أن لا يكون في اللغة فرق بين مفهوم اللفظين. فإن كان بينهما فرق، فليطلب له مثال آخر. وهذا يرجع إلى اتحاد الحقيقة وكثرة الاسم. ولا بدّ في قولنا: هو هو، من كثرة من وجه ووحدة من وجه. وأحقّ الوجوه أن تكون الوحدة في المعنى والكثرة في مجرد اللفظ.

وهذا القدر كاف في الكشف عن هذا الخلاف الطويل الذيل، القليل النيل. فقد ظهر لك أنّ الاسم والتسمية والمسمّى ألفاظ متباعدة المفهوم، مختلفة المقصود، وإنّما يصحّ على الواحد منها أن يقال: هو غير الثاني، لا أنّه هو، لأنّ الغير في مقابلة الهو هو.

وأما المذهب الثالث المقسّم الاسم إلى ما هو المسمّى وإلى ما هو غيره وإلى ما لا هو هو ولا هو غيره، فأبعد المذاهب عن السداد وأجمعها لقبول الاضطراب، إلا أن يؤوّل ويقال: ما أراد بالاسم الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام الاسم نفسه، بل أراد به مفهوم الاسم ومدلوله، ومفهوم الاسم غير الاسم، فإنّ مفهوم الاسم هو المدلول، والمدلول غير الدليل. وهذا الانقسام الذي ذكره متطرّق إلى مفهوم الاسم. فالصواب أن يقال: مفهوم الاسم قد يكون ذات المسمّى وحقيقته وماهيته، وهي أسماء الأنواع التي ليست مشتقة، كقولك: إنسان وعلم وبياض، وما هو مشتق، فلا يدلّ على حقيقة المسمّى، بل يترك الحقيقة مبهمة ويدلّ على صفة له، كقولك: عالم وكاتب.

ثم المشتقّ ينقسم وماهيته، وهي أسماء الأنواع، إلى ما ليست مشتقة كقولك إنسان وعلم وبياض، وما هو مشتق إلى ما يدلّ على وصف حال في المسمّى، كالعالم والأبيض، وإلى ما يدلّ على إضافة له إلى غير مفارق، كالحال والكاتب.

وحّد القسم الأوّل كلّ اسم يقال في جواب: ما هو؟ فإنّه إذا أُشير إلى شخص آدمي وقيل: ما هو؟ ليس كقول: من هو؟، فجوابه أن يقال: إنسان. فلو قيل: حيوان، لم يكن قد ذكر تمام الماهيّة، لأنّه ليس تتقوّم ماهيته بمجرد الحيوانيّة، لأنّه هو هو بأنّه حيوان عاقل لا بأنّه حيوان فقط. ولفظ الإنسان اسم للحيوان العاقل. فلو قيل بدل الإنسان: أبيض أو طويل أو عالم أو كاتب، لم يكن جواباً، لأنّ مفهوم الأبيض شيء مبهم له وصف البياض، ما يُدرى ما ذلك الشيء، ومفهوم العالم شيء مبهم له وصف العلم، ومفهوم الكاتب شيء مبهم له فعل الكتابة. نعم، يجوز أن يفهم أنّ الكاتب إنسان، ولكن من أمور خارجة وأدلة زائدة على مفهوم

اللفظ. وكذلك إذا أشير إلى لون وقيل: ما هو؟ فجوابه أنه بياض. فلو ذكر اسماً مشتقاً فقال: مشرق أو مغرق لضوء البصر، لم يكن جواباً، لأن المطلوب بقولنا: ما هو؟ حقيقة الذات وماهيتها التي بها هي ما هي. والمشتق شيء مبهم له الإشراق والمفرق شيء مبهم له التفريق

فهذا التقسيم في مدلول الأسماء ومفهومها صحيح. ويجوز أن يعبر عن هذا بأن الاسم قد يدل على الذات، وقد يدل على غير الذات، ويكون ذلك على سبيل المساهلة في الإطلاق. فإن قولنا: يدل على غير الذات، إن لم يفهم بأننا أردنا به غير الماهية المقولة في جواب: ما هو؟، لم يصح. فإن العالم يدل على ذات له العلم، فقد دل على الذات أيضاً. ففرق بين أن يقول: عالم، وبين أن يقول: علم، لأن العالم يدل على ذات له العلم، ولفظ العلم لا يدل إلا على العلم.

فقوله: الاسم قد يكون ذات المسمى، فيه خللان، ويحتاج فيه إلى إصلاحين: أحدهما: أن يدل الاسم بمفهوم الاسم.

والآخر: أن يدل الذات بماهية الذات. فيقال: مفهوم الاسم قد يكون حقيقة الذات وماهيتها، وقد يكون غير الحقيقة.

وأما قوله: إن الخالق هو غير المسمى، إن أراد به لفظ الخالق، فاللفظ أبداً هو غير مدلول اللفظ، وإن أراد به أن مفهوم اللفظ غير المسمى، فهو محال، لأن الخالق اسم، وكل اسم مفهومه مستأه. فإن لم يفهم المسمى منه فليس اسماً له. والخالق ليس اسماً للخلق وإن كان الخلق داخلاً فيه، والكاتب ليس اسماً للكتابة، ولا المسمى اسماً للتسمية. بل الخالق اسم ذات من حيث يصدر عنه الخلق. فالمفهوم من الخالق هو الذات أيضاً لكن لا حقيقة الذات فقط، بل المفهوم هو الذات من حيث له صفة إضافية، كما إذا قلنا: أب، لم يكن المفهوم منه ذات الأب، بل المفهوم ذات الأب من حيث إضافته إلى الابن.

والأوصاف تنقسم إلى إضافية وغير إضافية، والموصوف بجميعها الذات. فإن قال قائل: الخالق، وصف وكل وصف فهو إثبات، وليس في مضمون هذا اللفظ إثبات سوى الخلق، والخلق غير الخالق، وليس للخالق وصف حقيقي من الخلق، فلذلك قيل إنه يرجع إلى غير المسمى: فنقول: قول القائل: الاسم يفهم غير المسمى، متناقض، كقول القائل: الدليل يعرف غير المدلول. فإن المسمى عبارة عن مفهوم الاسم، فكيف يكون المفهوم غير المسمى والمسمى غير المفهوم؟

وأما قوله: إن الخالق لا وصف له من الخلق، والكاتب لا وصف له من الكتابة، فليس كذلك. والدليل على أن له وصفاً منه أنه يوصف به مرة وينفى عنه أخرى. والإضافة وصف للمضاف ينفي ويثبت، كالبياض الذي ليس بمضاف. فمن عرف زيداً وبكراً ثم عرف أن زيدا أب لبكر فقد عرف شيئاً لا محالة. وهذا الشيء إما وصف أو موصوف، وليس هو ذات الموصوف بل هو وصف، وليس وصفاً قائماً بنفسه بل هو وصف لزيد. فالإضافات من قبيل الأوصاف للمضافات، إلا أن مضمونها لا يعقل إلا بالقياس بين شيئين، وذلك لا يخرجها عن كونها أوصافاً.

ولو قال القائل: ليس الله عز وجل، موصوفاً بكونه خالقاً، كفر، كما لو قال: ليس موصوفاً بكونه عالماً، كفر. ولكن إنما وقع هذا القائل في هذا الخبط لأن الإضافة عند المتكلمين غير معدودة في جملة الأعراض، مع أنهم إذا قيل لهم: ما معنى العرض؟ قالوا: إنه الموجود في محل لا يقوم بنفسه. وإذا قيل لهم: هل الإضافة تقوم بنفسها؟ قالوا: لا. وإذا قيل لهم: هل الإضافة موجودة أم لا؟ قالوا: نعم. إذ لا يمكنهم أن يقولوا: الأبوة معدومة، إذ لو كانت الأبوة معدومة لم يكن في العالم أب. وإذا قيل لهم: الأبوة تقوم بنفسها، قالوا: لا. فيضطرون إلى الاعتراف بأنها موجودة في محل وأنها لا تقوم بنفسها، بل تقوم في محل. ويعترفون بأن العرض عبارة عن موجود في محل، ثم يعودون وينكرون أنه عرض.

وأما قوله: إِنَّ من الاسم ما لا يقال إنه المسمى ولا يقال هو غيره^(١)، فهو أيضاً خطأ، لأنه سيفسر ذلك بالعالم، وهذا إذا اعتذر فيه بأن الشرع لم يأذن في إطلاق ذلك في حق الله، عز وجل، فربما قيل: ليس التصريح بالحق والصدق موقوفاً على إذن خاص، وربما سُمح الآن فيه وردَّ النظر معه إلى الإنسان إذا وصف بالعلم، أفنقول: إِنَّ العلم ليس غير الإنسان، وقد كان الإنسان موجوداً ولم يكن العلم، وحدَّ العلم غير حدِّ الإنسان، لا محالة؟ فإن قال: العلم غير الإنسان، ولكن إذا قلنا عن شخص واحد إنه عالم وإنه إنسان، لم يكن العالم هو الإنسان ولا هو غير الإنسان، لأنَّ الإنسان هو الموصوف به، قلنا: ويلزم هذا من الكاتب والنَّجَّار، فإنَّ الموصوف به أيضاً هو الإنسان.

على أنَّ الحق فيه التفصيل: وهو أن يقال: مفهوم لفظ الإنسان غير مفهوم لفظ العالم، إذ مفهوم الإنسان حيوان ناطق عاقل، ومفهوم العالم شيء مبهم له علم، فأحد اللفظين غير اللفظ الآخر، ومفهوم أحدهما غير مفهوم الآخر. فهو بهذا الوجه هو غير، لا يجوز أن يقال: هو هو، وبوجه آخر هو هو ولا يجوز أن يقال بذلك الوجه إلا: هو غيره. وذلك إذا نظرت إلى الذات الواحدة التي توصف بأنها إنسان وأنها عالمة، فإنَّ المسمى بالإنسان هو الموصوف بأنه عالم، كما أنَّ المسمى بالثلج هو الموصوف بأنه بارد وأبيض. فبهذا النوع من النظر والاعتبار هو هو، وبالاختبار الأوَّل هو غيره. ومحال في العقل أن يكون الاعتبار واحداً ويكون لا هو هو ولا

(١) قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية: «وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى وغيره؟ وطائفة غلط كثير من الناس في ذلك، وجعلوا الصواب فيه: فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله من حمد، ونحو ذلك - فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم هنا هو المراد ولا المسمى ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الإجمال فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسماً، أوحى سبحانه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى.

غيره، كما يستحيل أن يكون هو هو وغيره، لأنَّ الغير وهو متقابلان تقابل النفي والإثبات، فليس بينهما واسطة.

ومن فهم هذا علم أنه إذا أثبت لله، عز وجل، وصف القدرة والعلم زائداً على الذات، فقد أثبت ما هو غير الذات، وأثبت للغيرية معنى وإن لم يطلقه لفظاً، توقفاً إلى ورود التوقيف. فكيف لا، وإذا ذكر حدَّ العلم دخل فيه علم الله، عز وجل، ولم يدخل فيه قدرته ولا ذاته. والخارج عن الحدِّ كيف لا يكون غير الداخل في الحدِّ، وكيف لا يجوز لحادَّ العلم، إذا لم يُدخِل في حدِّه القدرة، أن يعتذر ويقول: لا يضرتني خروج القدرة عن الحدِّ لأنني حددت العلم، والقدرة غير العلم، فلا يلزمي إدخالها في حدَّ العلم، فكذلك الذات العالمة غير العلم، فلا يلزمي إدخالها في حدَّ العلم. فمن استنكر قول القائل: الداخل في الحدِّ غير الخارج منه، وأحال إطلاق لفظ الغير هاهنا، كان من جملة من لم يفهم معنى لفظ الغير. وما عندي أنه لا يفهم. فإنَّ معنى لفظ الغير ظاهر، لكن عساه يقول بلسانه ما ينبو عنه عقله ويكذِّبه فيه سره. وليس الغرض من المحاجة البرهانية اقتناص الألسنة بل اقتناص العقول، لتعترف باطناً بما هو الحق، أفصح عنه باللسان أو لم يُفصح.

فإن قيل: إنما اضطرب القائلين بأنَّ الاسم هو المسمى، إلى القول به: الحذر من أن يقولوا: الاسم هو اللفظ الدال بالاصطلاح، فيلزمهم القول بأنَّ الله، عز وجل، لم يكن له اسم في الأزل إذ لم يكن لفظ ولا لافظ، فإنَّ اللفظ حادث؛ فنقول: هذه ضرورة ضعيفة يهون دفعها، إذ يقال: معاني الأسماء كانت ثابتة في الأزل ولم تكن الأسماء، لأنَّ الأسماء عربية وعجمية، وكلُّها حادثة. وهذا في كلِّ اسم يرجع إلى معنى الذات أو صفة الذات، مثل القدوس، فإنه كان بصفة القدس في الأزل، ومثل العالم، فإنه كان عالماً في الأزل.

فإنَّا قد بينا أنَّ الأشياء لها ثلاث مراتب في الوجود.

أحدها في الأعيان، وهذا الوجود موصوف بالقدم فيما يتعلق بذات الله، عز وجل، وصفاته.

والثاني في الأذهان، وهذا الوجود حادث إذ كانت الأذهان حادثة.

والثالث في اللسان، وهي الأسماء، وهذا الوجود أيضاً حادث بحدوث

اللسان. نَعَمْ، نريد بالثابت في الأذهان المعلوم، وهي أيضاً إذا أضيفت إلى ذات الله، عز وجل، كانت قديمة لأن الله، عز وجل، موجود وعالم في الأزل، وكان يعلم أنه موجود وعالم. فكان وجوده ثابتاً في نفسه وفي علمه أيضاً، وكانت الأسماء التي سيلهمها عباده ويخلقها في أذهانهم وألستهم أيضاً معلومة عنده. فبهذا التأويل يجوز أن يقال: كانت الأسماء له في الأزل.

أما الأسماء التي ترجع إلى الفعل كالمخلوق والمصور والوهاب فقد قال قوم: يوصف بأنه خالق في الأزل، وقال آخرون: لا يوصف. وهذا خلاف لا أصل له، فإن الخالق يطلق لمعينين: أحدهما ثابت في الأزل قطعاً، والآخر منفي قطعاً، ولا وجه للخلاف فيهما، إذ السيف يسمى قاطعاً وهو في الغمد ويسمى قاطعاً حالة حَزْ الرقية، فهو في الغمد قاطع بالقوة وعند الحَزْ قاطع بالفعل. والماء في الكوز مَرُورٍ ولكن بالقوة. وفي المعدة مَرُورٍ بالفعل. ومعنى كَوْن الماء في الكوز مَرُوراً أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عند مصادفة المعدة، وهي صفة المائية. والسيف في الغمد قاطع، أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي المحل، وهي الحدة، إذ لا يحتاج إلى أن يستحدّ وصفاً آخر في نفسه.

فالبارئ، سبحانه وتعالى، في الأزل خالق بالمعنى الذي به يقال الماء الذي في الكوز مَرُورٍ، وهو أنه بالصفة التي بها يصبح الفعل والخلق. وهو بالمعنى الثاني غير الخالق، أي الخلق غير صادر منه. وكذلك هو في الأزل على المعنى الذي به يسمى عالماً وقُدُوساً وغير ذلك. وكذلك يكون في الأبد، سماء غيره بذلك الاسم أو لم

يسم. وأكثر أغاليط الجدليين منشؤه عدم التمييز بين معاني الأسماء المشتركة، وإذا مُيزت ارتفع أكثر اختلافاتهم.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾^(١) [سورة يوسف/ الآية: ٤٠]، ومعلوم أنهم ما كانوا يعبدون الألفاظ التي هي حروف مقطعة، بل كانوا يعبدون المسميات، فنقول: إن المستدل بهذا لا يفهم وجه دلالته ما لم يقل: إنهم كانوا يعبدون المسميات دون الأسماء، فيكون في كلامه التصريح بأن الأسماء غير المسميات. إذ لو قال القائل: العرب كانت تعبد الأسماء دون المسميات، كان متناقضاً، ولو قال: تعبد المسميات دون الأسماء، كان مفهوماً غير متناقض. فلو كانت الأسماء هي المسميات لكان القول الأخير كالأول.

ثم يقال: معناه أن اسم الآلهة التي أطلقوها على الأصنام كان اسماً بلا مسمى، لأن المسمى هو المعنى الثابت في الأعيان من حيث دلّ عليه باللفظ، ولم تكن الأصنام آلهة ثابتة في الأعيان ولا معلومة في الأذهان، بل كانت أساميها موجودة في اللسان، فكانت أسامي بلا معان. ومن سُمّي باسم الحكيم ولم يكن حكيماً، وفرح به، قيل: فرح بالاسم، إذ ليس وراء الاسم معنى. وهذا هو الدليل على أن الاسم غير المسمى، لأنه أضاف الاسم إلى التسمية، وأضاف التسمية إليهم وجعلها فعلاً لهم، فقال: ﴿أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [سورة يوسف/ الآية: ٤٠]، يعني أسماء حصلت بتسميتهم وفعلهم. وأشخاص الأصنام لم تكن هي الحادثة بتسميتهم.

(١) وذهب الباقلاني في تفسير هذه الآية إلى: فأعبر أنهم يعبدون أسماء، وهم إنما عبدوا الأشخاص دون الكلام والقول الذي هو التسمية فيدل ذلك على أن الاسم الذي ذكره هو نفس المسمى (التمهيد) ص ٢٦٠.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١) [سورة الأعلى / الآية: ١]، والذات هي المسبحة دون الاسم، قلنا: الاسم هاهنا زيادة على سبيل الصفة، وعادة العرب بمثله جارية. وهو كقوله، عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى / الآية: ١١]. ولا يجوز أن يُستدل فيقال: فيه إثبات المثل، إذ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى / الآية: ١١]، كما يقال: ليس كولد أحد، إذ فيه إثبات الولد، بل الكاف فيه زيادة.

ولا يبعد أن يُكنى عن المسمى بالاسم، إجلالاً للمسمى، كما يكنى عن الشريف بالجناب والحضرة والمجلس، فيقال: السلام على حضرته المباركة ومجلسه الشريف. والمراد به السلام عليه، ولكن يكنى عنه بما يتعلق به نوعاً من التعلق، إجلالاً. وكذلك الاسم وإن كان غير المسمى فهو متعلق بالمسمى ومطابق له، وهذا لا ينبغي أن يلتبس على البصير في أصل الوضع.

كيف، وقد استدلل القائلون بأن الاسم غير المسمى بقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الأعراف / الآية: ١٨٠]، ويقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِثْقَلُ أَحَدِهَا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةُ﴾^(٢). وقالوا: لو كان هو المسمى لكان المسمى تسعاً وتسعين، وهو محال، لأن المسمى واحد. فانظر أولئك إلى الاعتراف ها هنا بأن الاسم غير المسمى، وقالوا: يجوز أن يرد بمعنى التسمية لا بمعنى المسمى. كما سلم الآخرون بأن الاسم قد يرد بمعنى المسمى، وإن كان هو

(١) أي سبِّح ربك الأعلى، ولا حاجة بنا إلى حمل ذلك على أنه أريد به ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ لأنه قد يجوز أن يسبح باسم ربه الذي هو الله نفسه (التمهيد ٢٦١).

(٢) وتأويل ذلك أي له تسع وتسعون تسمية هي عبارات عن كون البارئ تبارك وتعالى على أوصاف شتى منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماءه العائدة إلى نفسه هي هو وما تعلق منها بصفة له فهي أسماء له، فمنها صفات ذات ومنها صفات أفعال وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، أي تسميات.

غير المسمى في الأصل. وعليه نزلوا قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى / الآية: ١] ولم يحسن كل واحد من الفريقين في الاستدلال والجواب جميعاً. أما قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى / الآية: ١]، فقد ذكرنا ما فيه وعليه. وأما هذا الاستدلال، فجوابهم عنه، بأن الاسم والمسمى واحد، وإنما أريد بالاسم ها هنا التسمية فقط؛ خطأ من وجهين:

أحدهما: أن من يقول: الاسم هو المسمى، لا يعجز عن أن يقول: المسمى ها هنا تسعة وتسعون، لأن المراد بالمسمى مفهوم الاسم عند هذا القائل. ومفهوم العلم غير مفهوم التقدير والقدوس والخالق وغير ذلك، بل لكل اسم مفهوم ومعنى على حياله، وإن كان الكل يرجع إلى وصف ذات واحدة، فكان هذا القائل يقول: الاسم هو المعنى. ويمكن أن يقول: لله تعالى المعاني الحسنى، فإن التسميات هي المعاني، وفيها كثرة لا محالة.

والثاني: أن قوله: المراد بالاسم ها هنا التسمية، خطأ. فإننا قد بينا أن التسمية هو ذكر الاسم أو وصفه. والتسمية تتعدد وتكثر بكثرة المسمين وإن كان الاسم واحداً، كما أن الذكر والعلم يكثر بكثرة الذاكرين والعالمين وإن كان المذكور والمعلوم واحداً. فكثرة التسمية لا تقتصر إلى كثرة الأسماء، لأن ذلك يرجع إلى أفعال المسمين. فما أريد بالأسماء ها هنا التسميات، بل أريد الأسماء. والأسماء هي الألفاظ الموضوعية الدالة على المعاني المختلفة، فلا حاجة إلى هذا التعسف في التأويل وسواء قيل الاسم هو المسمى أو لم يقل.

فهذا القدر يكفيك في كشف هذه المسألة وإن كانت المسألة، لقلة جدواها، لا تستحق هذا الإطناب. ولكن قصدنا بالشرح تعليم طريق التعرف لأمثال هذه المباحث، لتستعمل في مسائل أهم من هذه المسألة. فإن أكثر تطواف النظر في هذه المسألة حول الألفاظ دون المعاني. والله أعلم.

المغفرة بالإضافة إلى كثرة الذنوب، حتى أن من لا يغفر إلا نوعاً واحداً من الذنوب فلا يقال له: غفور.

والغفار يشير إلى كثرة على سبيل التكرار، أي يغفر الذنوب مرة بعد أخرى. حتى أن من يغفر جميع الذنوب ولكن أول مرة، ولا يغفر للعائد إلى الذنب مرة بعد أخرى، لم يستحق اسم الغفار.

وكذلك الغني والمملك، فإن الغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء، والمملك أيضاً هو الذي لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء. فيكون الملك مفيداً معنى الغنى وزيادة.

وكذلك العليم والخبير، فإن العليم يدل على العلم فقط، والخبير يدل على علمه بالأمور الباطنة. وهذا القدر من التفاوت يُخرج الأسماء عن أن تكون مترادفة، وتكون من جنس السيف والمهند والصارم لا من جنس الأسد والليث. فإن عجزنا في بعض هذه الأسماء المتقاربة عن هذين المسلكين، فينبغي أن نعتقد تفاوتاً بين معنى اللفظين. وإن عجزنا عن التنصيص على خصوص ما به الافتراق، كالعظيم والكبير، مثلاً، فإنه يصعب علينا أن نذكر وجه الفرق بين معنييهما في حق الله تعالى، ولكننا لا نشك في أصل الافتراق. ولذلك قال، عز من قائل:

«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(١)، ففرق بينهما فرقاً يدل على التفاوت.

فإن كل واحد من الرداء والإزار زينة للآبس، ولكن الرداء أشرف من الإزار. ولذلك جعل مفتاح الصلاة: «الله أكبر»، ولم يَقم عند ذوي البصائر النافذة (الله أعظم) مقامه. وكذلك العرب في استعمالها تفرق بين اللفظين إذ تستعمل (الكبير) حيث لا تستعمل (العظيم)، ولو كانا مترادفين لتواردتا في كل مقام. تقول

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٢٠) بلفظ: «(العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن يسارعني عدتيه)» وأبو داود رقم (٤٠٩٠) وابن ماجه رقم (٤١٧٤) والكبرياء كونه متكبراً في ذاته، استكبره غيره أم لا، والعظمة كونه يستعظمه غيره، فالكبرياء صفة ذاتية وهي أرفع من العظمة، لكنونها إضافية، فشبهت بالرداء الذي هو أرفع من الإزار.

الفصل الثاني

في بيان الأسماء المتقاربة في المعنى، وأنها هل يجوز أن تكون مترادفة لا تدل إلا على معنى واحد، أو لابد أن تختلف مفهوماتها

فأقول: الخائفون في شرح هذه الأسماء لم يتعرضوا لهذا الأمر، ولم يستبعدوا أن يكون اسمان لا يدلان إلا على معنى واحد، كالكبير والعظيم، والقادر والمقتدر، والخالق والبارئ والمصور. وهذا مما استبعد غاية الاستبعاد مهما كان الاسمان من جملة التسعة والتسعين. لأن الاسم لا يراد لحروفه بل لمعانيه. والأسماء المترادفة لا تختلف إلا بحروفها. وإنما فضيلة هذه الأسماء لما تحتها من المعاني، فإذا حلت عن المعنى لم يبق إلا الألفاظ. والمعنى إذا دل عليه بألف اسم لم يكن له فضل على المعنى الذي يدل عليه باسم واحد. فيبعد أن يكمل هذا العدد المحصور بتكرير الألفاظ على معنى واحد، بل الأشبه أن يكون تحت كل لفظ خصوص معنى.

فإذا رأينا لفظين متقاربين فلا بد فيه من أحد أمرين:

أحدهما: أن تبين أن أحدهما خارج عن التسعة والتسعين، مثل الأحد والواحد. فإن الرواية المشهورة عن أبي هريرة، رضي الله عنه، ورد فيها الواحد. وفي رواية أخرى ورد الأحد بدل الواحد. فيكون مكمل العدد معنى التوحيد، إما بلفظ الواحد أو بلفظ الأحد. فأمّا أن يقوموا في تكميل العدد مقام اسمين والمعنى واحد، فهو بعيد عندي جداً.

الثاني: أن تتكلف إظهار مزية لأحد اللفظين على الآخر، ببيان اشتماله على دلالة لا يدل عليها الآخر. مثاله، لو ورد الغافر والغفور والغفار، لم يكن بعيداً أن تعد هذه ثلاثة أسماء. لأن الغافر يدل على أصل المغفرة فقط، والغفور يدل على كثرة

العرب: فلان أكبر سناً من فلان، ولا تقول: أعظم سناً. وكذلك الجليل غير الكبير والعظيم، فإنّ الجلال يشير إلى صفات الشرف، ولذلك لا يقال: فلان أجلّ سناً من فلان، ويقال: أكبر، ويقال: العرش أعظم من الإنسان، ولا يقال: أجلّ من الإنسان. فهذه الأسامي، وإن كانت متقاربة المعاني، فليست مترادفة. وعلى الجملة، يبعد الترادف المحض في الأسماء الداخلة في التسعة والتسعين، لأنّ الأسامي لا تترادف بحروفها ومخارج أصواتها، بل لمفهوماتها ومعانيها، فهذا أصل لا بد من اعتقاده.

الفصل الثالث

في الاسم الواحد الذي له معانٍ مختلفة وهو مشترك بالإضافة إليها

كالمؤمن، مثلاً. فإنه قد يراد به المصدق، وقد يشتقّ من الأمن، ويكون المراد إفادة الأمن والأمان. فهل يجوز أن يحمل على كلا المعنيين حمل العموم على مسمياته، كما يحمل التعليم على العلم بالغيب والشهادة والظاهر والباطن، وغير ذلك من المعلومات الكثيرة؟ وهذا إذا نظر إليه من حيث اللغة، فبعيد أن يحمل الاسم المشترك على جميع المسميات حمل العموم، إذ العرب تطلق اسم الرجل وتريد به كلّ واحد من الرجال. وهذا هو العموم. ولا تطلق اسم العين وتريد به عين الشمس والدينار وعين الميزان والعين المنفجرة من الماء والعين، والباصرة من الحيوان. وهذا هو اللفظ المشترك. بل تطلق مثل ذلك لإرادة أحد معانيه، وتميّز ذلك بالقرينة. وقد حكى عن الشافعي، رضي الله عنه، في الأصول، أنّه قال: «الاسم المشترك يحمل على جميع مسمياته إذا ورد مطلقاً، ما لم تدلّ قرينة على التخصيص». وهذا إن صحّ منه فهو بعيد، بل مطلق لفظ العين مبهم في اللغة لا يتعين به واحد من مسمياته إلا أن تدلّ قرينه على التعيين.

فأمّا التعميم، فربما خالف وضع الشرع وضع اللسان. نعم، فيما تصرف الشرع فيه من الألفاظ لا يبعد أن يكون من وضعه وتصرفه إطلاق اللفظ لإرادة جميع المعاني. فيكون اسم المؤمن بالشرع محمولاً على المصدق ومفيداً للأمن بوضع شرعي لا بوضع لغوي. كما أن اسم الصلاة والصيام قد اختص بتصرف الشرع ببعض أمور لا يقتضي وضع اللغة ذلك. فهذا غير بعيد لو كان عليه دليل، ولكن لم يدلّ دليل على أنّ الشرع قد غيّر الوضع فيه. والأغلب على ظني أنّه لم يغيّر، وأنّ من قال من

المصنِّفين: إنَّ الاسم الواحد من أسماء الله، عزَّ وجلَّ، إذا احتمل معاني ولم يدلَّ العقل على إحالة شيء منها، حُمل على الجميع بطريق العموم، فقد أبعد فيه.

نَعَمْ، من المعاني ما يتقارب تقارباً يكاد يرجع الاختلاف فيه إلى الإضافات، فيقرب شبهه من العموم. فالتعميم فيه أقرب، كالسلام، فإنه يحتمل أن يكون المراد سلامته من العيب والنقص، ويحتمل أن يكون المراد سلامة الخلق به ومنه. فهذا وأمثاله أشبه بالعموم. فإذا ثبت أنَّ الميل الأظهر إلى منع التعميم، فطلب التعيين لبعض المعاني لا يكون إلاً بالاجتهاد، فيكون الحامل للمجهد على تعيين بعض المعاني: إمَّا أنه أُلِّق، كمفيد الأمان، فإنه أُلِّق بالمدح في حقَّ الله، عزَّ وجلَّ، من التصديق، فإنَّ التصديق أُلِّق بغيره، إذ يجب على الكلِّ الإيمان به والتصديق بكلامه، فإنَّ رتبة المصدِّق فوق رتبة المصدَّق؛ وإمَّا أن يكون أحد المعنيتين لا يودِّي إلى الترادف بين اسمين، كحمل المهيمن على غير الرقيب، فإنه أولى من الرقيب، لأنَّ الرقيب قد ورد، والترادف بعيد، كما ذكرناه؛ وإمَّا أن يكون أحد المعنيتين أظهر في التعارف وأسبق إلى الإنفهام لشهرته، أو أدلَّ على الكمال والمدح. فهذا وما يجري مجراه ينبغي أن يُعوَّل عليه في بيان الأسامي. ولا نذكر لكلِّ اسم إلاً معنى واحداً نراه أقرب، ونضرب عمَّا عداه صفحاً، إلا إذا رأيناه مقارباً في الدرجة لما ذكرناه. فأمَّا تكثير الأقاويل المختلفة فيه، مع أننا لا نرى تعميم الألفاظ المشتركة، فلا نرى فيه فائدة.

الفصل الرابع

في بيان أنَّ كمال العبد وسعادته في التخلُّق بأخلاق الله تعالى، والتحلي

بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يُتصوَّر في حقِّه

اعلم أنَّ من لم يكن له حفظ من معاني أسماء الله، عزَّ وجلَّ، إلاً بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة معنى تفسيره ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى؛ فهو مبخوس الحظَّ، نازل الدرجة، ليس يحسن به أن يتبسَّح بما ناله. فإنَّ سماع اللفظ لا يستدعي إلاً سلامة حاسة السمع التي بها تدرك الأصوات. وهذه رتبة تشارك البهيمة فيها.

وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلاً معرفة العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي بل الغيِّ اللغويِّ البدويِّ.

وأما اعتقاد ثبوت معناه لله، سبحانه وتعالى، من غير كشف، فلا يستدعي إلاً فهم معاني الألفاظ والتصديق بها، وهذه رتبة يشارك فيها العاميُّ، بل الصبيُّ. فإنه بعد فهم الكلام، إذا ألقي إليه هذه المعاني تلقَّاهَا وتلقَّاهَا واعتقدَها بقلبه وصمَّ عليها. وهذه درجات أكثر العلماء، فضلاً عن غيرهم. ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من لم يشاركهم في هذه الدرجات الثلاث، ولكنَّه نقص ظاهر بالإضافة إلى ذروة الكمال. فإنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين. بل حظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى ثلاثة:

الحظ الأول: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة، حتَّى يتَّضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم أنصاف الله، عزَّ وجلَّ، بها، انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة، التي

يدركها بمشاهدة باطنه، لا بإحساس ظاهر. وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليداً، والتصميم عليه، وإن كان مقروناً بأدلة جدلية كلامية!

الحظ الثاني من حظوظهم: استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث، من الاستعظام، يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات، ليقتربوا بها من الحق قريباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً بالملائكة المقربين عند الله، عز وجل. ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة، وعشق لذلك الكمال والجلال، وحرص على التحلي بذلك الوصف، إن كان ذلك ممكناً للمستعظم بكماله. فإن لم يكن بكماله، فنبعث الشوق إلى القدر الممكن منه، لا محالة.

ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين:

إما لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال.

وإما لكون القلب ممتلئاً بشوق آخر، مستغرقاً به. فالتلميذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث شوقه إلى التشبه والافتداء به، إلا إذا كان مملوءاً بالجوع مثلاً، فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعث شوق العلم. ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خالياً عن إرادة ما سوى الله، عز وجل، فإن المعرفة بذر الشوق. ولكن مهما صادف قلباً خالياً عن حسيكة الشهوات، فإن لم يكن خالياً لم يكن البذر منجحاً.

الحظ الثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتحلل بها والتخلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانياً، أي قريباً من الرب تعالى^(١)، وبه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب. فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى.

(١) بالصفة لا بالمكان.

فإن قلت: طلب القرب من الله، عز وجل، بالصفة أمر غامض تكاد تشمئز القلوب عن قبوله والتصديق به، فزده شرحاً تكسر به سورة إنكار المنكرين، فإن هذا كالمنكر عند الأكثرين إن لم تكشف حقيقته.

فأقول: لا يخفى عليك ولا على من ترعرع قليلاً من درجة عوام العلماء أن الموجودات منقسمة إلى كاملة ناقصة، والكامل أشرف من الناقص. ومهما تفاوتت درجات الكمال واقتصر منتهى الكمال على واحد حتى لم يكن الكمال المطلق إلا له، ولم يكن للموجودات الأخر كمال مطلق، بل كانت لها كمالات متفاوتة بالإضافة، فأكملها أقرب، لا محالة، إلى الذي له الكمال المطلق، أعني قريباً بالرتبة والدرجة لا بالمكان.

ثم الموجودات منقسمة إلى حية وميتة. وتعلم أن الحي أشرف وأكمل من الميت، وأن درجات الأحياء ثلاثة: درجة الملائكة، ودرجة الإنس، ودرجة البهائم. ودرجة البهائم أسفل في نفس الحياة التي بها شرفها، لأن الحي هو الإدراك الفعال، وفي إدراك البهيمة نقص، وفي فعلها نقص.

أما إدراكها، فنقصانه أنه مقصور على الحواس، وإدراك الحس قاصر لأنه لا يدرك الأشياء إلا بماسة أو بقرب منها. فالحس معزول عن الإدراك إن لم يكن مماسة ولا قرب. فإن الذوق واللمس يحتاجان إلى المماسّة، والسمع والبصر والشم يحتاج إلى القرب. وكل موجود لا يتصور فيه المماسّة والقرب، فالحس معزول عن إدراكه في هذه الحال.

وأما فعلها، فهو أنه مقصور على مقتضى الشهوة والغضب، لا باعث لها سواهما، وليس لها عقل يدعو إلى أفعال مخالفة لمقتضى الشهوة والغضب.

وأما الملاك: فدرجته أعلى الدرجات لأنه عبارة عن موجود لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه، بل لا يقتصر إدراكه على ما يتصور فيه القرب والبعد، إذ القرب والبعد يتصور على الأجسام، والأجسام أحسن أقسام الموجودات. ثم هو مقتس عن

الشهوة والغضب، فليست أفعاله بمقتضى الشهوة والغضب، بل داعيه إلى الأفعال أمر أجل من الشهوة والغضب، وهو طلب التقرب إلى الله، عز وجل.

وأما الإنسان: فإن درجته متوسطة بين الدرجتين، وكأنه مركب من بهيمية وملكية. والأغلب عليه، في بداية أمره، البهيمية. إذ ليس له أولاً من الإدراك إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلى طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة، إلى أن يشرق عليه بالآخرة نور العقل المتصرف في ملكوت السموات والأرض، من غير حاجة إلى حركة بالبدن وطلب قربة أو مماسة مع المدرك به، بل مدركة الأمور المقدسة عن قبول القرب والبعد بالمكان. وكذلك المستولي عليه أولاً شهوته وغضبه، وبحسب مقتضاهما انبعثانه، إلى أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال، والنظر للعاقبة، وعصيان مقتضى الشهوة والغضب. فإن غلب الشهوة والغضب حتى ملكهما وضعفاً عن تحريكه وتسكينه، أخذ بذلك شيئاً من الملائكة. وكذلك إن فطم نفسه عن الجمود على الخيالات والمحسوسات وأنس بإدراك أمور تجلّ عن أن يناها حساً أو خيالاً، أخذ شيئاً آخر من الملائكة. فإن خاصية الحياة الإدراك والعقل، وإليهما يتطرق النقصان والتوسط والكمال. ومهما اقتدى بالملائكة في هاتين الخاصيتين كان أبعد عن البهيمية وأقرب من الملك. والملك قريب من الله، عز وجل، والقريب من القريب قريب.

فإن قلت: فظاهر هذا الكلام يشير إلى إثبات مشابهة بين العبد وبين الله تعالى، لأنه إذا تخلق بأخلاقه كان شبيهاً له، ومعلوم شرعاً وعقلاً أنّ الله، سبحانه وتعالى، ليس كمثله شيء، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فأقول: مهما عرفت معنى المماثلة المنفية عن الله، عز وجل، عرفت أنه لا مثل له، ولا ينفي أن يظن أن المشاركة في كل وصف توجب المماثلة.

أفترى أنّ الضدين يتماثلان وبينهما غاية البعد الذي لا يتصور أن يكون بعد فوقه، وهما متشاركان في أوصاف كثيرة، إذ السواد يشارك البياض في كونه عرضاً،

وفي كونه لوناً، وفي كونه مدركاً بالبصر، وأمور آخر سواها؟ أفترى أنّ من قال: إنّ الله عز وجل، موجود لا في محلّ، وإنه سميع، بصير، عالم، مريد، متكلم، حي، قادر، فاعل، والإنسان أيضاً كذلك، فقد شبه وأثبت المثل؟ هيهات، ليس الأمر كذلك، ولو كان كذلك لكان الخلق كلّهم مشبهة، إذ لا أقلّ من إثبات المشاركة في الوجود، وهو موهوم للمشابهة. بل المماثلة عبارة عن المشاركة في النوع والماهية. والفرس وإن كان بالغاً في الكياسة، لا يكون مثلاً للإنسان. لأنه مخالف له بالنوع، وإنما يشابهه بالكياسة التي هي عارضة، خارجة عن الماهية المقومة لذات الإنسانية.

والخاصية الإلهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته، الذي عنه يوجد كلّ ما في الإمكان وجوده، على أحسن وجه النظام والكمال. وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة، والمماثلة بها لا تحصل. فكون العبد رحيماً، صبوراً شكوراً، لا يوجب المماثلة، ككونه سميعاً، بصيراً، عالماً، قادراً، حياً، فاعلاً. بل أقول: الخاصية الإلهية ليست إلاّ الله تعالى ولا يعرفها إلاّ الله، ولا يتصور أن يعرفها إلاّ هو أو من مثله، وإذا لم يكن له مثل، فلا يعرفها غيره. فإذا، الحق ما قاله الجنيد^(١)، رحمه الله، حيث قال: (لا يعرف الله إلاّ الله). ولذلك لم يعط أجلاً خلقه إلاّ اسماً حجب به، فقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى / الآية: ١]. فوالله ما عرف الله غير الله في الدنيا والآخرة. وقيل لذي النون^(٢)، وقد أشرف على الموت: (ماذا تشتتهي؟) فقال: (أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة). وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي والتعطيل، وذلك لعجزهم عن فهم هذا الكلام.

(١) الجنيد: الجنيد بن محمد بن الجنيد النخعي ثم البغدادي القواريري شيخ الصوفية ولد سنة (٢٤٠هـ) في بغداد وتوفي سنة (٣٤٠هـ) في بغداد. (٢) ذي النون المصري: أبو الفتح ذي النون المصري ولد سنة (٢٤٠هـ) في مصر وتوفي سنة (٣٤٠هـ) في مصر. (٣) الجنيد: الجنيد بن محمد بن الجنيد النخعي ثم البغدادي القواريري شيخ الصوفية ولد سنة (٢٤٠هـ) في بغداد وتوفي سنة (٣٤٠هـ) في بغداد.

(٤) ذي النون المصري: أبو الفتح ذي النون المصري ولد سنة (٢٤٠هـ) في مصر وتوفي سنة (٣٤٠هـ) في مصر. (٥) الجنيد: الجنيد بن محمد بن الجنيد النخعي ثم البغدادي القواريري شيخ الصوفية ولد سنة (٢٤٠هـ) في بغداد وتوفي سنة (٣٤٠هـ) في بغداد.

وأنا أقول: لو قال القائل: لا أعرف الله، كان صادقاً، ولو قال: أعرف الله، كان صادقاً، ومعلوم أن النفي والإثبات لا يصدقان معاً، بل يتقاسمان الصدق والكذب، فإن صدق النفي كذب الإثبات، وبالعكس، ولكن إذا اختلف وجه الكلام تصوّر الصدق في القسمين. وهو كما لو قال القائل لغيره: هل تعرف الصديق أبا بكر، رضي الله عنه؟ فقال: والصديق ممن يُجهل ولا يعرف، أو يُتصوّر في العالم من لا يعرفه، مع ظهوره واشتহারه وانتشار اسمه؟ فهل على المنابر إلا حديثه، وهل في المساجد إلا ذكره، وهل على الألسنة إلا ثناؤه ووصفه؟ لكان هذا القائل صادقاً. ولو قيل لآخر: هل تعرفه؟ فقال: ومن أنا حتى أعرف الصديق؟ هيهات، لا يعرف الصديق سوى الصديق، أو من هو مثله أو فوقه؛ ومن أين لي أن أدعي معرفته أو أطمع فيها؛ وإنما مثلي يسمع اسمه وصفته، فأما أن يدعي معرفته فذلك محال؛ فهذا أيضاً صادق، وله وجه، وهو أقرب إلى التعظيم والاحترام.

وهكذا ينبغي أن يفهم قول من قال: أعرف الله، وقول من قال: لا أعرف الله. بل لو عرضت خطأ منظوماً على عاقل وقلت: هل تعرف كاتبه؟ فقال: لا، صدق. ولو قال: نعم، كاتبه هو الإنسان الحي، القادر، السميع، البصير، السليم البدن، العالم بصناعة الكتابة، فإذا عرفت كل هذا منه فكيف لا أعرفه؟ فهذا أيضاً صدق. ولكن الأحق والأصدق قوله: لا أعرفه، فإنه بالحقيقة، ما عرفه، وإنما عرف احتياج الخط المنظوم إلى كاتب حي، عالم، قادر، سميع، بصير، سليم البدن، عالم بصناعة الكتابة، ولم يعرف الكاتب نفسه. فكذلك الخلق كلهم لم يعرفوا إلا احتياج هذا العالم المنظوم، المحكم، إلى صانع مدبر، حي، عالم، قادر.

وهذه المعرفة لها طرفان:

أحدهما يتعلق بالعالم، ومعلومه احتياجه إلى مدبر.

والآخر يتعلق بالله، عز وجل، ومعلومه أسامي مشتقة من صفات غير داخلية في حقيقة الذات وماهيتها. فإننا قد بينا أنه إذا أشار المشير إلى شيء وقال: ما

هو؟ لم يكن ذكر الأسماء المشتقة جواباً أصلاً. فلو أشار إلى شخص حيوان فقال: ما هو؟ فقل: طويل أو أبيض أو قصير، أو أشار إلى ماء فقال: ما هو؟ فقل: بأنه بارد، أو أشار إلى نار فقال: ما هو؟ فقل: حار؛ فكل ذلك ليس بجواب عن الماهية البتة. والمعرفة بالشيء هي معرفة حقيقته وماهيته، لا معرفة الأسماء المشتقة. فإن قولنا: حار، معناه شيء مبهم له وصف الحرارة، وكذلك قولنا: قادر وعالم، معناه شيء مبهم له وصف العلم والقدرة.

فإن قلت: فقولنا: إنه الواجب الوجود الذي عنه وحده يوجد كل ما في الإمكان وجوده، عبارة عن حقيقته وحده، وقد عرفنا هذا، فأقول: هيهات فقولنا: واجب الوجود، عبارة عن استغناؤه عن العلة والفاعل، وهذا يرجع إلى سلب السبب عنه. وقولنا: يوجد عنه كل موجود، يرجع إلى إضافة الأفعال إليه. وإذا قيل لنا: ما هذا الشيء؟ قلنا: هو الفاعل، لم يكن جواباً؛ وإذا قلنا: هو الذي له علة، لم يكن جواباً، فكيف قولنا: هو الذي لا علة له، لأن كل ذلك نبأ عن غير ذاته، وعن إضافة له إلى ذاته، إما بنفي أو إثبات. وكل ذلك أسماء وصفات وإضافات.

فإن قلت: فما السبيل إلى معرفته؟ فأقول: لو قال لنا صبي أو عنين: ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع وإدراك حقيقته؟ قلنا: ها هنا سبيلان: أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه، والآخر أن تصير حتى تظهر فيك غريزة الشهوة، ثم تبشر الوقاع حتى تظهر فيك لذة الوقاع، فتعرفه. وهذا السبيل الثاني والسبيل المحقق، المفضي إلى حقيقة المعرفة.

فأما الأول، فلا يفضي إلا إلى توهم وتشبيه للشيء بما لا يشبهه، إذ غايته أن تمثل لذة الوقاع عنده بشيء من اللذات التي يدركها العنين، كلذة الطعام والشراب الخلو، مثلاً. فنقول له: أما تعرف أن السكر لذيق، فإنك تجد عند تناوله حالة طيبة وتحس في نفسك راحة؟ قال: نعم. قلنا: فالجماع أيضاً كذلك. أترى أن هذا يفهمه حقيقة لذة الجماع كما هي حتى ينزل في معرفته منزلة من ذاق تلك اللذة وأدركها؟ هيهات، إنما غاية هذا الوصف إيهام وتشبيه خطأ وتفهم ومشاركة في الاسم.

أما الإبهام: فهو أنه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة. وأما التشبيه، فهو أنه يشبهه بحلاوة السكر، وهو خطأ، إذ لا مناسبة بين حلاوة السكر ولذّة الوقاع. وأما المشاركة في الاسم، فهو أنه يعلم أنه مستحق أن يسمى لذّة. ومهما ظهرت الشهرة وذائق، علم قطعاً أنه لا يشبهه حلاوة السكر، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذي توهمه. نعم، يعلم أن الذي كان قد سمع من اسمه وصفته، وأنه لذيد وطيب، كان صادقاً، بل كان أصدق عليه منه على حلاوة السكر.

فكذلك لمعرفة الله، سبحانه وتعالى، سبيلان:

أحدهما قاصر.

والآخر مسدود.

أما القاصر: فهو ذكر الأسماء والصفات، وطريقه التشبيه بما عرفناه من أنفسنا. فإننا لما عرفنا أنفسنا قادرين، عالمين، أحياء، متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله، عز وجل، أو عرفناه بالدليل، فهمناه فهماً قاصراً، كفهم العين لذّة الوقاع بما يوصف له من لذّة السكر. بل حياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعد من حياة الله، عز وجل، وقدرته وعلمه، من حلاوة السكر من لذّة الوقاع. بل لا مناسبة بين البعدين. وفائدة تعريف الله، عز وجل، بهذه الأوصاف أيضاً إبهام وتشبيه ومشاركة في الاسم. لكن يقطع التشبيه بأن يقال: ليس كمثله شيء، فهو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين. كما تقول: الوقاع لذيد كالسكر، ولكن تلك اللذّة لا تشبه هذه البتّة، ولكن تشاركها في الاسم.

وكأننا إذا عرفنا أن الله تعالى حي، قادر، عالم، فلم نعرف إلا أنفسنا ولم نعرفه إلا بأنفسنا. إذ الأصم لا يتصور أن يفهم معنى قولنا: إن الله سميع، ولا الأكمه^(١) يفهم معنى قولنا: إنه بصير. ولذلك إذا قال القائل: كيف يكون الله، عز وجل، عالماً

(١) الأكمه: هو الذي يولد مطموس العين وقد يقال تلعب عنه (مفردات القرآن).

بالأشياء؟ فنقول: كما تعلم أنت الأشياء. فإذا قال: فكيف يكون قادراً؟ فنقول: كما تقدر أنت. فلا يمكنه أن يفهم شيئاً إلا إذا كان فيه ما يناسبه. فيعلم أولاً ما هو متّصف به، ثم يعلم غيره بالمقايسة إليه. فإن كان لله عز وجل، وصفٌ وخاصيّة ليس فيها ما يناسبه ويشاركه في الاسم، ولو مشاركة حلاوة السكر لذّة الوقاع، لم يتصور فهمه البتّة. فما عرف أحد إلا نفسه، ثم قايس بين صفات الله تعالى وصفات نفسه. وتعالى صفاته عن أن تشبه صفاتنا فنكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإبهام والتشبيه. فينبغي أن تقتزن بها المعرفة بنفي المشابهة وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسم.

وأما السبيل الثاني المسدود: فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له الصفات الربوبية كلّها حتى يصير ربّاً، كما ينتظر الصبي أن يبلغ فيدرك تلك اللذّة. وهذا السبيل مسدود ممتنع، إذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى. وهذا هو سبيل المعرفة المحققة لا غير، وهو مسدود قطعاً إلا على الله تعالى.

فإذا، يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله، بل أقول: يستحيل أن يعرف النبي غير النبي. وأما من لا نبوة له، فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصيّة موجودة لإنسان، بها يفارق من ليس نبيّاً، ولكن لا يعرف ماهيّة تلك الخاصيّة إلا النبي خاصة. فأما من ليس بنبي، فلا يعرفها البتّة ولا يفهمها إلا بالتشبيه بصفات نفسه.

بل أزيد وأقول: لا يعرف أحد حقيقة الموت وحقيقة الجنّة والنار إلا بعد الموت ودخول الجنّة أو النار، لأنّ الجنّة عبارة عن أسباب ملذّة. ولو فرضنا شخصاً لم يدرك قطّ لذّة، لم يمكننا أصلاً أن نفهمه الجنّة تفهماً يُرغبه في طلبها. والنار عبارة عن أسباب مؤلمة. ولو فرضنا شخصاً لم يقاس قطّ ألماً، لم يمكننا قطّ أن نفهمه النار. فإذا قاساها فهمناه إياها بالتشبيه بأشدّ ما قاساه، وهو ألم النار.

وكذلك إذا أدرك شيئاً من اللذات، فغابتنا أن نفهم الجنة بالتشبيه بأعظم ما ناله من اللذات، وهي المطعم والمنكح والمنظر وما أشبه ذلك. فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمه أصلاً إلا بالتشبيه بهذه اللذات، كما ذكرناه في تشبيه لذة الوقاع بخلاوة السكر. ولذات الجنة أبعد من كل لذة أدركناها في الدنيا، من لذة الوقاع عن لذة السكر. بل العبارة الصحيحة عنها أنها فيها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١) فإن مثلناها بالأطعمة قلنا مع ذلك: لا كهذه الأطعمة، وإن مثلناها بالوقاع قلنا: لا كالوقاع المعهود في الدنيا. فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا: لم يحصل أهل الأرض والسماء معرفة من الله تعالى إلا على الصفات والأسماء، ونحن نقول: لم يحصلوا من الجنة إلا على الصفات والأسماء؟ وكذلك في كل ما سمع الإنسان اسمه وصفته، وما ذاقه وما أدركه ولا انتهى إليه ولا اتصف به.

فإن قلت: فماذا نهاية معرفة العارفين بالله تعالى؟ فنقول: نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة. ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله عز وجل، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً، كما ذكرناه، فقد عرفوه، أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته.

وهو الذي أشار إليه الصديق الأكبر أبو بكر، رضي الله عنه، - حيث قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك»^(٢). بل هو الذي عناه سيّد البشر، صلوات الله وسلامه عليه، حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣).

(١) حديث رواه البخاري (٢٣٠/٦) ومسلم رقم (٢٨٢٤).

(٢) العجز عن درك الإدراك إدراك والبعث عن سر ذات السر إشراك.

(٣) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وتره: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» رواه مسلم رقم (٨٦) وأبو داود (١٤٢٧) والترمذي (٣٥٦١) والنسائي (٢٤٨/٣) وابن ماجه (١١٧٩) وأحمد في (المسند) (٩٦/١ و ١١٨ و ١٥٠) وإسناده صحيح.

ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه: إني لا أحيط بحامدك وصفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك. فإذا، لا يحظى مخلوق في ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالخيوة والدهشة. وأما اتساع المعرفة، فإنها تكون في معرفة أسمائه وصفاته.

فإن قلت: فماذا تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفته، إن كان لا يتصور معرفته؟ فأقول: قد عرفت أن للمعرفة سبيلين:

أحدهما السبيل الحقيقي، وذلك مسدود إلا في حق الله تعالى. فلا يهتز أحد من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردت به سبحات الجلال إلى الخيرة، ولا يشرب^(١) أحد لملاحظته إلا غصت الدهشة طرفه.

وأما السبيل الثاني: وهو معرفة الصفات والأسماء، فذلك مفتوح للخلق، وفيه تتفاوت مراتبهم. فليس من يعلم أنه عز وجل، عالم قادر، على الجملة، كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة، مُعِيناً في التفصيل، ومستقصياً دقائق الحكمة، ومستوفياً لطائف التدبير، ومتصفاً بجميع الصفات الملكية المقربة من الله، عز وجل، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصاف بها؛ بل بينهما من البون^(٢) العظيم ما لا يكاد يحصى. وفي تفاصيل ذلك ومقاديره يتفاوت الأنبياء والأولياء.

ولن يصل إلى فهمك هذا إلا بمشال، ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النحل/ الآية: ٦٠]. ولكنك تعلم أن العالم التقي الكامل، مثلاً، مثل الشافعي، رضي الله عنه. يعرفه بواب داره، ويعرفه المزني، رحمه الله، تلميذه. فالبواب يعرفه أنه عالم بالشرع ومصنف فيه ومرشد خلق الله، عز وجل، إليه، على الجملة. والمزني يعرفه لا كمعرفة البواب، بل معرفة محيطة بتفاصيل صفاته ومعلوماته. بل العالم الذي يحسن عشرة

(١) يشرب: يمد عنقه لينظر أو يرتفع.

(٢) البون: المسافة بين الشيئين.

أنواع من العلوم لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصل إلا نوعاً واحداً، فضلاً عن نحاده الذي لم يحصل شيئاً من علومه. بل الذي حصل علماً واحداً فإنما عرف على التحقيق عشره، إن ساواه في ذلك العلم حتى لم يقصر عنه. فإن قصر عنه، فليس يعرف بالحقيقة ما قصر عنه إلا بالاسم وإيهام الجملة. وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئاً سوى ما علمه. فكذلك فافهم تفاوت الخلق في معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات الله، عز وجل، وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة، والملوك والملوك؛ تزداد معرفتهم بالله، عز وجل، وتقرب معرفتهم من معرفة الحقيقة من معرفة الله تعالى.

فإن قلت: فإذا لم يعرفوا حقيقة الذات واستحال معرفتها، فهل عرفوا الأسماء والصفات معرفة تامة حقيقية؟ قلنا: هيهات! ذلك أيضاً لا يعرفه بالكمال والحقيقة إلا الله، عز وجل. لأننا إذا علمنا أن ذاتاً عالمة، فقد علمنا شيئاً مبهماً لا ندري حقيقته، لكن ندري أن له صفة العلم. فإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة، كان علمنا بأنه عالم علماً تاماً بحقيقة هذه الصفة، وإلا فلا. ولا يعرف أحد حقيقة علم الله، عز وجل، إلا من له مثل علمه. وليس ذلك إلا له، فلا يعرفه أحد سواه. وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه، كما أوردنا من مثال التشبيه بالسحر. وعلم الله، عز وجل، لا يشبه علم الخلق البتة، فلا يكون معرفة الخلق به معرفة تامة حقيقية، بل إيهامية تشبيهية.

ولا تتعجب من هذا، فإني أقول: لا يعرف الساحر إلا الساحر نفسه أو ساحر مثله أو فوقه. فأمّا من لا يعرف السحر وحقيقته وماهيته، لا يعرف من الساحر إلا اسمه، ويعرف أن له علماً وخاصية، لا يدري ما ذلك العلم، إذ لا يدري معلومه ولا يدري ما تلك الخاصية، نعم، يدري أن تلك الخاصية وإن كانت مبهمة فهي من جنس العلوم، ولمرتتها تغيير القلوب وتبديل الأعيان والتفريق بين الأزواج، وهذا بمعزل عن معرفة حقيقة السحر. ومن لم يعرف حقيقة السحر لا

يعرف حقيقة الساحر، لأن الساحر من له خاصية السحر. وحاصل اسم الساحر أنه اسم مشتق من تلك الصفة، إن كانت مجهولة فهو مجهول، وإن كانت معلومة فهو معلوم. والمعلوم من السحر لغیر الساحر وصف عام بعيد عن الماهية، وهو أنه من جنس العلوم، فإن اسم العلم ينطلق عليه.

فكذلك الحاصل عندنا من قدرة الله، عز وجل، أنه وصف، ثمرته وأثره وجود الأشياء. وينطلق عليه اسم القدرة لأنه يناسب قدرتنا مناسبة لذة الوقاع لذة السكر. وهذا كله بمعزل عن حقيقة تلك القدرة. نعم، كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنع في ملكوت السماوات كان حفظه من معرفة صفة القدرة أوفر، لأن الثمرة تدل على المثمر. كما أنه كلما ازداد التلميذ إحاطة بتفاصيل علوم الأستاذ وتفاصيله كانت معرفته له اكمل، واستغنامه له أتم.

فإلى هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين. ويتطرق إليه تفاوت لا يتناهى. لأن ما لا يقدر الآدمي على معرفته من معلومات الله تعالى لا نهاية له. وما يقدر عليه أيضاً لا نهاية له، وإن كان ما يدخل منه في الوجود متناهياً. ولكن مقدور الآدمي من العلوم لا نهاية له. نعم الخارج إلى الوجود متفاوت في الكثرة والقلة، وبه يظهر التفاوت، وهو كالتفاوت بين الناس في القدرة الحاصلة لهم بالغنى بالمال. فمن واحد يملك الدائق والدرهم، ومن آخر يملك آلافاً. فكذلك العلوم؛ بل التفاوت في العلوم أعظم، لأن المعلومات لا نهاية لها، وأعيان الأموال أجسام، والأجسام متناهية لا يتصور أن تنتهي النهاية عنها.

فإذا، قد عرفت كيف يتفاوت الخلق في بحار معرفة الله، عز وجل، وأن ذلك لا نهاية له. وعرفت أن من قال: لا يعرف الله غير الله، فقد صدق، وأن من قال: لا أعرف إلا الله، فقد صدق أيضاً. فإنه ليس في الوجود إلا الله، عز وجل، وأفعاله. فإذا نظر إلى أفعاله من حيث هي أفعاله، وكان مقصور النظر عليه، ولم يره من حيث هو سماء وأرض وشجر، بل من حيث أنه صنعه، فلم يجاوز معرفته حضرة الربوبية، فيمكنه أن يقول: ما أعرف إلا الله وما أرى إلا الله، عز وجل.

ولو تصوّر شخص لا يرى إلّا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق، يصحّ منه أن يقول: ما أرى إلّا الشمس، فإنّ النور الفايض منها هو من جملتها، ليس خارجاً منها. وكلّ ما في الوجود نور من أنوار القدرة الأزليّة، وأثر من آثارها. وكما أنّ الشمس ينبوع النور الفايض على كلّ مستنير، فكذلك المعنى الذي قصرت العبارة عنه، فعبر عنه بالقدرة الأزليّة، للضرورة، وهو ينبوع الوجود الفايض على كلّ موجود. فليس في الوجود إلّا الله، عزّ وجلّ. فيجوز أن يقول العارف: لا أعرف إلّا الله.

ومن العجائب أن يقول: لا أعرف إلّا الله، ويكون صادقاً، ويقول: لا أعرف الله، ويكون أيضاً صادقاً، ولكن ذلك بوجه، وهذا بوجه. ولو كذبت المتناقضات إذا اختلفت وجوه الاعتبارات، كما صدق قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال/ الآية: ١٧]. ولكنّه صادق لأنّ للرّمى اعتبارين: هو منسوب إلى العبد بأحدهما، ومنسوب إلى الربّ تعالى بالثاني، فلا تناقض فيه.

ولنقبض ها هنا عنان البيان، فقد حصنا لجة بحر لا ساحل له. وأمثال هذه الأسرار لا ينبغي أن تبتذل بإيداع الكتب. وإذ جاء هذا عرضاً غير مقصود، فلنكفّ عنه ولنرجع إلى شرح معاني أسماء الله الحسنى على التفصيل.

الفنّ الثاني

في المقاصد والغايات

وليه فصول ثلاثة

- الفصل الأول: في شرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين
- الفصل الثاني: في المقاصد والغايات
- الفصل الثالث: في بيان كيفية رجوع ذلك كله إلى ذات واحدة على مذهب المعتزلة والفلاسفة

الفصل الأول

في شرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين

وهي التي اشتملت عليها رواية أبي هريرة، رضي الله عنه، إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها دخل الجنة»^(١).

هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواحد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، السر، الثواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

فأما قوله (الله)، فهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي. فإن كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته، وإنما استفاد الوجود منه. فهو من حيث ذاته هالك، ومن الجهة التي

(١) قال البخاري: أحصاها: حفظها. رواه البخاري: (١١/١٨-١٩٢) ومسلم رقم (٢٦٧٧). ولم ترد مسرودة

معلومة إلا في كتاب الرملي.

تليه موجود. فكل موجود هالك إلا وجهه. والأشبه أنه جار في الدلالة على هذا المعنى بجرى أسماء الأعلام، وكل ما ذكر في اشتقاقه وتعريفه تعسف وتكلف.

فائدة:

اعلم أن هذا الاسم أعظم أسماء الله، عز وجل، التسعة والتسعين، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء، وسائر الأسماء لا يدل أحادها إلا على آحاد المعاني، من علم أو قدرة أو فعل أو غيره؛ ولأنه أخص الأسماء، إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً، وسائر الأسماء قد يسمي به غيره، كالقادر والعليم والرحيم وغيره. فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء.

دقيقة:

معاني الأسماء يتصور أن يتصف العبد بشيء منها حتى ينطلق عليه الاسم، كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره، وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر يبين إطلاقه على الله، عز وجل. وأما معنى هذا الاسم فخاص خصوصاً لا يتصور فيه مشاركة، لا بالمجاز ولا بالحقيقة. ولأجل هذا الخصوص يوصف سائر الأسماء بأنها اسم الله، عز وجل، ويعرف بالإضافة إليه، فيقال: الصبور والشكور والملك والجبار من أسماء الله، عز وجل، ولا يقال: الله من أسماء الشكور والصبور. لأن ذلك، من حيث هو، أدل على كنه المعاني الإلهية وأخص بها، فكان أشهر وأظهر، فاستغني عن التعريف بغيره، وعرف غيره بالإضافة إليه.

تنبيه:

ينبغي أن يكون حفظ العبد من هذا الاسم التأله. وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله، عز وجل، لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه. وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي

الحق، وكلّ ما سواه فإن وهالك وباطل إلّا به. فيرى أولاً نفسه أوّل هالك وباطل، كما رآه رسول الله ﷺ، حيث قال: «أصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلَ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(١) وكلّ نعيم لا محالة زائل

الرحمن الرحيم

اسمان مشتقان من الرحمة. والرحمة تستدعي مرحوماً، ولا مرحوم إلّا وهو محتاج. والذي ينقضي بسببه حاجة المحتاج من غير قصد وإرادة وعناية بالمحتاج لا يسمّى رحيماً. والذي يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها، فإن كان قادراً على قضائها لم يُسمَّ رحيماً، إذ لو تمت الإرادة لوفى بها، وإن كان عاجزاً فقد يسمّى رحيماً باعتبار ما اعتوره من الرقة، ولكنه ناقص. وإنما الرحمة التامة إفاضة الخير على المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم. والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق. ورحمة الله عز وجل، تامة وعامة. أمّا تمامها، فمن حيث أنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها. وأمّا عمومها، فمن حيث شمولها للمستحق وغير المستحق، وعمّ الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنهما. فهو الرحيم المطلق حقاً.

دقيقة:

الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعترى الرحيم، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم. والربّ، سبحانه وتعالى، منزّه عنها. فلعلّك تظنّ أن ذلك نقصان في معنى الرحمة. فاعلم أنّ ذلك كمال وليس بنقصان في معنى الرحمة.

أمّا أنه ليس بنقصان فمن حيث أنّ كمال الرحمة بكمال لمرتها، ومهما قضيت حاجة المحتاج بكماها لم يكن للمرحوم حظّ في تألّم الراحم وتفجّعه، وإنما

(١) رواه البخاري رقم (٣٨٤) و٦١٤٧ و٦٤٨٩ ومسلم رقم (٢٢٥٦)

تألّم الراحم لضعف نفسه ونقصانها. ولا يزيد ضعفها في غرض المحتاج شيئاً، بعد أن قضيت كمال حاجته.

وأما أنه كمال في معنى الرحمة، فهو أنّ الرحيم عن رقة وتألّم يكاد يقصد بفعله دفع ألم الرقة عن نفسه، فيكون قد نظر لنفسه وسعى في غرض نفسه، وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة. بل كمال الرحمة أن يكون نظره إلى المرحوم لأجل المرحوم، لا لأجل الاستراحة من ألم الرقة.

فائدة:

الرحمن أخصّ من الرحيم، ولذلك لا يسمّى به غير الله، عز وجل. والرحيم قد يطلق على غيره، فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله تعالى المجاري بحري العلم، وإن كان هذا مشتقاً من الرحمة قطعاً. ولذلك جمع الله، عز وجل، بينهما، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء / الآية: ١١٠]. فيلزم من هذا الوجه، ومن حيث معنا الترادف في الأسماء المحصاة، أن يفرّق بين معنى الاسمين. فبالحري أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة هي أبعد من مقدورات العباد، وهي ما يتعلّق بالسعادة الأخروية. فالرحمن هو العطوف على العباد، بالإنعام بالنعمة، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً، وبالإسعاد في الآخرة ثالثاً، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً.

تنبيه:

حظّ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله، عز وجل، بالوعظ والنصح، بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء، وأن يكون كلّ معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعيه، رحمة لذلك العصاة أن يتعرّض لسخط الله ويستحقّ البعد من جواره.

وحظّه من اسم الرحيم أن لا يدع فاقة محتاج إلّا يسدّها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلّا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إمّا بماله، أو جاهه، أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره. فإن عجز عن جميع ذلك، فيعيّنه بالدعاء، وإظهار الحزن بسبب حاجته، رقة عليه وعطفاً، حتّى كأنّه مساهم له في ضرّه وحاجته.

سؤال وجوابه:

لعلّك تقول: ما معنى كونه تعالى رحيماً، وكونه أرحم الراحمين؛ والرحيم لا يرى مبتلى ومضروباً ومعذباً ومريضاً، وهو يقدر على إمطة ما بهم؛ إلّا ويأدر إلى إمطته؛ والربّ، سبحانه وتعالى، قادر على كفاية كلّ بليّة، ودفع كلّ فقر وغمّة، وإمطة كلّ مرض، وإزالة كلّ ضرر، والدنيا طافحة بالأمراض والمحن والبلايا، وهو قادر على إزالة جميعها، وتارك عبادة ممتحنين بالرزايا والمحن.

فجوابك: إن الطفل الصغير قد ترقّى له أمّه فتمنعه عن العاقل والأب العاقل يحمله عليها قهراً. والجاهل يظنّ أنّ الرحيم هي الأمّ دون الأب، والعاقل يعلم أنّ إيلام الأب إيّاه بالحجامة من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقه، وأنّ الأمّ له عدوّ في صورة صديق، فإنّ الألم القليل، إذا كان سبباً للذة الكثيرة، لم يكن شراً بل كان خيراً.

الرحيم

يريد الخير للمرحوم لا محالة. وليس في الوجود شرّ إلّا وفي ضمنه خير، لو رفع ذلك الشرّ ليطل الخير الذي في ضمنه، وحصل يطلانه شرّ أعظم من الشرّ الذي يتضمنه. فاليد المتأكلة قطعها شرّ في الظاهر، وفي ضمنه الخير الجليل، وهو سلامة البدن. ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن، وكان الشرّ أعظم. وقطع اليد لأجل سلامة البدن شرّ في ضمنه خير. ولكنّ المراد الأوّل السابق إلى نظر القاطع السلامة التي هي خير محض. ثمّ لما كان السبيل إليه قطع اليد، قصد قطع اليد لأجله، فكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولاً، والقطع مطلوباً لغيره ثانياً، لا لذاته، فهما داخلان تحت

الإرادة، ولكنّ أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره. والمراد لذاته قبل المراد لغيره. ولأجله قال الله، عزّ وجلّ: «سبقت رحمتي غضبي»^(١). فغضبه إرادته للشرّ، والشرّ بإرادته. ورحمته إرادته للخير، والخير بإرادته. ولكنّ أراد الخير للخير نفسه، وأراد الشرّ لا لذاته ولكنّ لما في ضمنه من الخير، فالخير مقضيّ بالذات والشرّ مقضيّ بالعرض، وكلّ يقدر. وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلاً.

فالآن، إن خطر لك نوع من الشرّ لا ترى نفعه خيراً، أو خطر لك أنّه كان تحصيل ذلك الخير ممكناً لا في ضمن الشرّ، فاتّهم عقلك القاصر في أحد الخاطرين.

أمّا في قولك: إنّ هذا الشرّ لا خير نفعه، فإنّ هذا ممّا تقصّر العقول عن معرفته. ولعلّك فيه مثل الصبيّ الذي يرى الحجامة شراً محضاً، أو مثل الغبيّ الذي يرى القتل، قصاصاً، شراً محضاً، لأنّه ينظر إلى خصوص شخص المقتول، لأنّه في حقه شرّ محض، ويذهل عن الخير العامّ الحاصل للناس كافّة. ولا يدري أنّ التوصل بالشرّ الخاصّ إلى الخير العامّ خير محض لا ينبغي للخير أن يهمله.

أو اتّهم عقلك في الخاطر الثاني، وهو قولك: إنّ تحصيل ذلك لا في ضمن ذلك الشرّ ممكن. فإنّ هذا أيضاً دقيق غامض. فليس كلّ عمالٍ وممكنٍ مما يدرك إمكانه واستحالته بالبدية ولا بالنظر القريب، بل ربّما عُرف ذلك بنظر غامض دقيق يقصر عنه الأكثرون.

فاتّهم عقلك في هذين الطرفين، ولا تشكّن أصلاً في أنّه أرحم الراحمين، وفي أنّه سبقت رحمته غضبه، ولا تسترّين في أنّ مريد الشرّ للشرّ لا للخير غير مستحقّ لاسم الرحمة. وتحت هذا الغطاء سرّ منع الشرّ عن إفشائه، فائق بالإيماء ولا تطلع في الإفشاء. ولقد بُهت بالرمز والإيماء، إن كنت من أهله فتأمل.

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٣٢٥/١٣) ومسلم (٢٧٥١) والترمذي (٣٥٣٧) وهو بلفظ: «لما خلق الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي». وفي رواية تغلب غضبي، وفي رواية (غلبت غضبي).

لقد أسمعتم لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي^(١)
هذا حكم الأكثرين. وأما أنت، أيها الأخ المقصود بالشرح، فلا أظنك إلا مستبصراً بسر الله، عز وجل، في القدر، مستغنياً عن هذه التحريمات والتبهيّات.

المَلِكُ

هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلّ موجود، ويحتاج إليه كلّ موجود. بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه، بل كلّ شيء فوجوده منه أو ما هو منه. فكلّ شيء سواه هو له مملوك في ذاته وصفاته، وهو مستغن عن كلّ شيء. فهذا هو المَلِكُ مطلقاً.

تنبيه:

العبد لا يتصور أن يكون مَلِكاً مطلقاً، فإنه لا يستغني عن كلّ شيء. فإنه أبداً فقير إلى الله تعالى وإن استغنى عن سواه. ولا يتصور أن يحتاج إليه كلّ شيء، بل يستغني عنه أكثر الموجودات. ولكن لما تُصور أن يستغني عن بعض الأشياء ولا يستغني عنه بعض الأشياء، كان له شوب^(٢) من المَلِك.

فالْمَلِكُ من العباد هو الذي لا يملكه إلا الله تعالى، بل يستغني عن كلّ شيء سوى الله، عز وجل. وهو مع ذلك يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه. وإنما مملكته الخاصة به قلبه وقالبه. وجنده شهوته وغضبه وهواه، ورعيته لسانه وعينه ويداؤه وسائر أعضائه. فإذا ملكها ولم يملكه، وأطاعته ولم يطعها؛ فقد نال درجة الملك في عالمه. فإن انضم إليه استغناؤه عن كلّ الناس. واحتاج الناس كلّهم إليه في حياتهم العاجلة والآجلة، فهو الملك في عالم الأرض.

(١) هذا البيت لأبي العلاء المعري. انظر ديوانه.

(٢) الشوب: الخلط.

وتلك رتبة الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين. فإنهم استغنوا في الهداية إلى الحياة الآخرة عن كلّ أحد إلا عن الله، عز وجل، واحتاج إليهم كلّ أحد. وإليهم في هذا الملك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء. وإنما ملكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد واستغنائهم عن الاسترشاد.

وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة في الصفات، ويتقرب إلى الله تعالى بها. وهذا الملك عطية للعبد من الملك الحق الذي لا مثوبة في ملكه.

ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء: «سلي حاجتك»، حيث قال: «أو تقول لي هذا ولي عبدان هما سيّدك؟» فقال: «ومن هما؟» قال: «الحرص والهوى، فقد غلبتهما وغلباك، وملكتهما وملكاك». وقال بعضهم لبعض الشيوخ: «أوصني» فقال له: «كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة». قال: «وكيف أفعل ذلك؟» فقال: «ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة». معناه: اقطع حاجتك وشهوتك عن الدنيا، فإنّ الملك في الحرية والاستغناء.

الْقُدُّوسُ

هو المنزّه عن كلّ وصف يدركه حسّ، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير. ولست أقول: منزّه عن العيوب والنقائص، فإنّ ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب. فليس من الأدب أن يقول القائل: ملك البلد ليس بحائك ولا حجام، فإنّ نفي الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود، وفي ذلك الإيهام نقص.

بل أقول: القدّوس هو المنزّه عن كلّ وصف من أوصاف الكمال الذي يظنّه أكثر الخلق كمالاً في حقه. لأنّ الخلق أولاً نظّروا إلى أنفسهم وعرفوا صفاتهم، وأدركوا انقسامها إلى ما هو كمال، ولكنه في حقهم، مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم وإرادتهم واختيارهم، ووضعوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني،

وقالوا: إن هذه هي أسماء الكمال؛ وإلى ما هو نقص في حقهم، مثل جهلهم وعجزهم وعماهم وصممهم وخرسهم، فوضعوا بإزاء هذه المعاني هذه الألفاظ.

ثم كان غايتهم في الثناء على الله تعالى ووصفه أن وصفه بما هو أوصاف كمالهم، من علم وقدره وسمع وبصر وكلام، وأن نفوا عنه ما هو أوصاف نقصهم. والله سبحانه وتعالى، منزّه عن أوصاف كمالهم كما أنّه منزّه عن أوصاف نقصهم، بل كلّ صفة تُصوّر للخلق، فهو منزّه ومقدّس عنها وعمّا يشبهها ويمثلها. ولولا ورود الرخصة والإذن بإطلاقها لم يجز إطلاق أكثرها. وقد فهمت معنى هذا في الفصل الرابع من فصول المقدمات، فلا حاجة إلى الإعادة.

تنبيه:

قُدّس العبد في أن ينزّه إرادته وعلمه. أمّا علمه، فينزّهه عن المتخيّلات والمحسوسات والموهومات وكلّ ما يشاركه فيه البهائم من الإدراكات. بل يكون تردّد نظره وتطواف علمه حول الأمور الأزلية الإلهية المنزّهة عن أن تقرب فتدرك بالحسّ، أو تبعد فتغيب عن الحسّ. بل يصير متجرّداً في نفسه عن المحسوسات والمتخيّلات كلّها، ويقتني من العلوم ما لو سلب آلة حسّه وتخيّله بقي رياناً بالعلوم الشريفة، الكلية، الإلهية، المتعلقة بالمعلومات الأزلية الأبدية، دون الشخصيات المتغيرة المستحيلة.

وأما إرادته، فينزّهها عن أن تدور حول الحفظ البشريّة التي ترجع إلى لذّة الشهوة والغضب، ومتعة الطعام والمشرب والمنكح والملبس والملمس والمنظر، وما لا يصل إليه من اللذات إلا بواسطة الحسّ والقلب، بل لا يريد إلا الله، عزّ وجلّ، ولا يبقى له حظّ إلا فيه، ولا يكون له شوق إلا إلى لقائه ولا فرح إلا بالقرب منه. ولو عُرضت عليه الجنة وما فيها من النعيم لم تلتفت همّته إليها ولم يقنع من الدار إلا برّب الدار.

وعلى الجملة، الإدراكات الحسية والخيالية تشارك البهائم فيها، فينبغي أن يرتقى عنها إلى ما هو من خواصّ الإنسانية. والحفظ البشريّة الشهوانية يزاحم البهائم أيضاً فيها، فينبغي أن يتنزّه عنها. فجلالة المريد على قدر جلالة مراده. ومن همّته ما يدخل في بطنه، فقيمته ما يخرج منه. ومن لم يكن له همّة سوى الله، عزّ وجلّ، فدرجته على قدر همّته. ومن رقى علمه عن درجة المتخيّلات والمحسوسات، وقُدّس إرادته عن مقتضى الشهوات، فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس.

السّلام

هو الذي تسلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشرّ، حتّى إذا كان كذلك، لم يكن في الوجود سلامة إلّا وكانت معزّة إليه، صادرة منه. وقد فهمت أنّ أفعاله تعالى سالمة عن الشرّ، أعني الشرّ المطلق المراد لذاته، لا لخير حاصل في ضمنه أعظم منه. وليس في الوجود شرّ بهذه الصفة، كما سبق الإيماء إليه؛ إلا الله سبحانه.

تنبيه:

كلّ عبد سلّم عن الغشّ والحقد والحسد وإرادة الشرّ قلبه، وسلّمت عن الآثام والمخطورات جوارحه، وسلّم عن الانتكاس والانعكاس صفاته، فهو الذي يأتي الله تعالى بقلب سليم. وهو السّلام، من العباد، القريب في وصفه من السّلام المطلق الحقّ الذي لا مثوبة في صفته.

وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه. إذ الحقّ عكسه، وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه. فإذا انعكس فقد انتكس. ولا سلامة حيث يصير الأمير مأموراً والملك عبداً. ولن يوصف بالسّلام والإسلام إلّا من سلم المسلمون من لسانه ويده. فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه.

المؤمن

هو الذي يُعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه وسدّه طرق المخاوف. ولا يُتصور أمن وأمان إلا في محلّ الخوف، ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك. والمؤمن المطلق هو الذي لا يُتصور أمن وأمان إلا ويكون مستفاداً من جهته، وهو الله، سبحانه وتعالى.

وليس يخفى أن الأعمى يخاف أن يناله هلاك من حيث لا يرى، فعينه البصيرة تقيده أمناً منه. والأتقطع يخاف آفة لا تندفع إلا باليد، فاليد السليمة أمان منها. وهكذا جميع الحواس والأطراف. والمؤمن خالقها ومصورها ومقوّيها.

ولو قدرنا إنساناً وحده مطلوباً من جهة أعدائه، وهو ملقى في مضيعة لا تتحرك عليه أعضاؤه لضعفه، وإن تحركت فلا سلاح معه، وإن كان معه سلاح لم يقاوم أعداءه وحده، وإن كان له جنود لم يأمن أن تنكسر جنوده ولا يجد حصناً يأوي إليه، فجاء من عاجل ضعفه فقواه، وأمدّه بمجنود وأسلحة، وبنى حوله حصناً حصيناً، فقد أفاده أمناً وأماناً. فالبحري أن يستى مؤمناً في حقه.

والعبد ضعيف في أصل فطرته، وهو عرضة للأمراض والجوع والعطش من باطنه، وعرضة الآفات المحرقة والمفرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره. ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلا الذي أعدّ الأدوية نافعة ورافعة لأمرضه، والأطعمة مزيلّة لجوعه، والأشربة مميطة لعطشه، والأعضاء دافعة عن بدنه، والحواسّ جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته. ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد. والله سبحانه وتعالى، هاديه إليها ومرغبه فيها، حيث قال: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن عذابي»^(١). فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب هو متفرد بخلقها والهداية إلى استعمالها. فهو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى. فهو المؤمن المطلق حقّاً.

(١) قال العراقي في تخرّيج (الإحياء): أخرجه الحاكم في (التاريخ) وأبو نعيم في (الحلية) من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد ضعيف جداً، وقول أبي منصور الدبلي: إنه حديث ثابت: مردود عليه.

تنبيه:

حفظ العبد من هذا الاسم والوصف أن يأمن الخلق كلّهم جانباً، بل يرجو كلّ خائف الاعتصاف به في دفع الهلاك عن نفسه، في دينه ودنياه. كما قال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(١). والبوائق: الغوائل والشُرور. وأحقّ العباد باسم المؤمن من كان سبباً لأمن الخلق من عذاب الله، بالهداية إلى طريق الله، عزّ وجلّ، والإرشاد إلى سبيل النجاة. وهذه حرفة الأنبياء والعلماء. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أنكم تهافتون في النار تهافت الفراش وأنا أخذت بحجزكم»^(٢).

خيال وتنبيه:

لعلك تقول: الخوف على الحقيقة من الله تعالى، فلا مخوف إلا إياه، فهو الذي خوف عباده، وهو الذي خلق أسباب الخوف، فكيف ينسب إليه الأمن؟ فجوابك: إنّ الخوف منه والأمن منه، وهو خالق سبب الأمن والخوف جميعاً. وكونه مخوّفاً لا يمنع كونه مؤمناً، كما أنّ كونه مذلاً لا يمنع كونه معزّزاً، بل هو المعزّ والمذلّ. وكونه خافضاً لا يمنع كونه رافعاً، بل هو الخافض والرافع. فكذلك هو المؤمن المخوف، لكن المؤمن ورد التوقيف به خاصة دون المخوف.

المُهيمن

معناه في حقّ الله عزّ وجلّ، أنّه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم. وإنّما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه. وكل مشرف على كنه الأمر مستولٍ عليه حافظ له، فهو مهيمن عليه. والإشراف يرجع إلى العلم،

(١) رواه البخاري رقم (٣٧٢/١٠) ومسلم (١٠٣٠) والزمذني (٢١٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٢٨) وأحمد في (المسند) (٣٦١/٣، ٣٩٢) والبخاري (١٠٠/١٤) و(٢٧٤/٧) والزمذني (٢٨٧٧).

بلفظ: «إنما مثلي ومثل الناس...»

والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل. فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن. ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا الله، عز وجل. ولذلك قيل: إنه من أسماء الله تعالى، في الكتب القديمة.

تنبيه:

كلُّ عبد راقب قلبه حتَّى أشرف على أغواره وأسراره، واستولى مع ذلك على تقويم أحواله وأوصافه، وقام بحفظها على الدوام على مقتضى تقويمه، فهو مهيم بالإضافة إلى قلبه. فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه حتَّى قام بحفظ بعض عباد الله، عز وجل، على نهج السداد، بعد اطلاعه على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرُّس والاستدلال بطواهرهم، كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظُّه أكثر.

العزیز

هو الخطير الذي يقلّ وجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه، يصعب الوصول إليه. فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز. فكم من شيء يقلّ وجوده، ولكن، إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه، لم يُسمَّ عزيزاً. وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن، إذا لم يصعب الوصول إليه، لم يُسمَّ عزيزاً. كالشمس، مثلاً، فإنّه لا نظير لها؛ والأرض كذلك. والنفع عظيم في كلّ واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما نولكن لا يوصفان بالعزّة لأنّه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما. فلا بدّ من اجتماع المعاني الثلاثة.

ثمّ في كلّ واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان. والكمال في قلّة الوجود أن يرجع إلى واحد، إذ لا أقلّ من الواحد. ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا الله تعالى. فإنّ الشمس، وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان، فيمكن وجود مثله في الكمال والنفاسة. وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كلّ شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته. وليس ذلك على الكمال إلاّ

الله، عز وجل، والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه، على معنى الإحاطة بكنهه. وليس ذلك على الكمال إلاّ الله، عز وجل. فإنّا قد بينّا أنّه لا يعرف الله إلاّ الله. فهو العزيز المطلق الحقّ، لا يوازيه فيه غيره.

تنبيه:

العزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله في أهمّ أمورهم، وهي الحياة الآخروية والسعادة الأبدية، وذلك مما يقلّ، لا محالة، وجوده، ويصعب إدراكه. وهذه رتبة الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين. ويشاركهم في العزّ من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصره، كالخلفاء وورثتهم من العلماء. وعزّة كلّ واحد منهم بقدر علوّ رتبته عن سهولة النيل والمشاركة، وبقدر عنائه في إرشاد الخلق.

الجبار

هو الذي تنفّذ مشيئته على سبيل الإجماع في كلّ واحد، ولا تنفّذ فيه مشيئة أحد، الذي لا يخرج أحد من قبضته، وتقتصر الأيدي دون حمى حضرته. فالجبار المطلق هو الله سبحانه وتعالى، فإنّه يُجير كلّ أحد ولا يُجير أحد، ولا مشيئة في حقّه في الطرفين.

تنبيه:

الجبار من العباد من ارتفع عن الاتباع ونال درجة الاستتباع، وتفرّد بعلوّ رتبته، بحيث يحير الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به، ومتابعته في سمته وسيرته. فيفيد الخلق ولا يستفيد، ويؤثّر ولا يتأثّر، ويستتبع ولا يتبع. ولا يشاهده أحد إلاّ ويفنى عن ملاحظة نفسه، يصير متشوقاً إليه، غير ملتفت إلى ذاته، ولا يطمع أحد في استدراجه واستتباعه. وإنما حظي بهذا الوصف سيّد البشر ﷺ، حيث قال: «لو كان موسى بن عمران حيّاً ما وسعه إلاّ أتباعي»^(١)، وقال: «وأنا سيّد ولد آدم، ولا فخر»^(٢).

(١) راجع مستند الإمام أحمد (٣/٣٣٨).

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٢٢٧٨) وأبو داود رقم (٤٧٦٣) والترمذي رقم (٣٦١٥).

التكبر

هو الذي يرى الكلّ حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد. فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقاً وكان صاحبها متكبراً حقاً. ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا الله، عز وجل. وإن كان ذلك التكبر والاستعظام باطلاً، ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه، كان التكبر باطلاً ومذموماً. وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص، دون غيره، كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلاً، إلا الله سبحانه وتعالى.

تنبيه:

التكبر من العباد هو الزاهد العارف. ومعنى زهد العارف أن يتزهد عما شغل سرّه عن الحق ويتكبر على كلّ شيء سوى الحق، سبحانه وتعالى، فيكون مستحقراً للدنيا والآخرة جميعاً، مترفعاً عن أن يشغله كلاهما عن الحق تعالى. وزهد غير العارف معاملة ومعاضة. فإنه يشتري بمحتاج الدنيا متاع الآخرة، فيترك الشيء عاجلاً، طمعاً في أضعافه آجلاً، وإنما هو سلّم ومبايعة. ومن استعبده شهوة المطعم والمنكح فهو حقير، وإن كان ذلك دائماً. وإنما التكبر من يستحق كل شهوة وحظ يتصور أن يساهمه البهائم فيها. والله أعلم.

الخالق، البارئ، المصور

قد يُظن أن هذه الأسماء مترادفة، أنّ الكلّ يرجع إلى الخلق والاختراع. ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كلّ ما يخرج من العدم إلى الوجود، فيفتقر إلى التقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً. والله سبحانه وتعالى، خالق من حيث أنّه مقدر، وبارئ من حيث أنّه مخترع موجد، ومصور من حيث أنّه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب.

وهذا كالبناء، مثلاً، فإنه يحتاج إلى مقدر يقدر ما لا بدّ له منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها. وهذا يتولاه المهندس، فيرسمه ويصوره. ثم يحتاج إلى بناء يتولّى الأعمال التي عندها يحدث أصول الأبنية. ثم يحتاج إلى مزيّن ينقش ظاهره ويزين صورته، فيتولاه غير البناء. هذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير. وليس كذلك في أفعال الله، عز وجل، بل هو المقدر والموجد والمزيّن، فهو الخالق، البارئ، المصور.

ومثاله الإنسان، وهو أحد مخلوقاته. وهو محتاج في وجوده أولاً إلى أن يقدر ما منه وجوده، فإنه جسم مخصوص. فلا بدّ من الجسم أولاً حتى يُخصّص بالصفات، كما يحتاج البناء إلى آلات حتى يبني. ثم لا يصلح لبنية الإنسان إلا الماء والتراب جميعاً. إذ التراب وحده يابس محض، لا ينشئ ولا ينعطف في الحركات. والماء وحده رطب محض، لا يتماسك ولا ينتصب، بل ينسط. فلا بدّ أن يمتزج الرطب باليابس حتى يعتدل، ويعبر عنه بالطين، ثم لابدّ من حرارة طابخة حتى يستحكم مزج الماء بالتراب ولا ينفصل. فلا يتخلّق الإنسان من الطين المحض، بل من صلصال كالفخار. والفخار هو الطين المعجون بالماء الذي قد عملت فيه النار حتى أحكمت مزاجه. ثم يحتاج إلى تقدير الماء والطين بمقدار مخصوص. فإنه إن صغر، مثلاً، لم تحصل منه الأفعال الإنسانيّة، بل كان على قدر الذرّ والنمل، فتسفيه الرياح ويهلكه أدنى شيء. ولا يحتاج إلى مثل الجبل من الطين، فإن ذلك يزيد على قدر الحاجة، بل الكافي من غير زيادة ونقصان، قدر معلوم يعلمه الله، عز وجل.

وكلّ ذلك يرجع إلى التقدير. فهو باعتبار تقدير هذه الأمور خالق، وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير مصور، وباعتبار مجرد الإيجاد والإخراج من العدم إلى الوجود بارئ. والإيجاد المجرد شيء، والإيجاد على وفق التقدير شيء آخر. وهذا يحتاج إليه من يبعد ردّ الخلق إلى مجرد التقدير، مع أنّ له في اللغة وجهاً، إذ العرب تسمي الحذاء خالقاً، لتقديره بعض طاقات النعل على بعض. ولذلك قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعد - ض القوم يخلق ثم لا يفري

فأما اسم المصور، فهو له من حيث رتب صور الأشياء أحسن ترتيب وصورها أحسن تصوير. وهذا من أوصاف الفعل، فلا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالم على الجملة، ثم على التفصيل. فإن العالم كله في حكم شخص واحد، مركب من أعضاء متعاونة على الغرض المطلوب منه. وإنما أعضاؤه وأجزاؤه السموات والكواكب والأرضون وما بينهما من الماء والهواء وغيرهما. وقد رتب أجزاؤه ترتيباً محكماً، لو غير ذلك الترتيب لبطل النظام. فخصص بجهة الفوق ما ينبغي أن يعلو، وبجهة السفلى ما ينبغي أن يسفل. وكما أن البناء يضع الحجارة أسفل الحيطان والخشب فوقها، لا بالاتفاق بل بالحكمة والقصد لإرادة الإحكام. ولو قلب ذلك، فوضع الحجارة فوق الحيطان والخشب أسفلها، لانهدم البناء، ولم تثبت صورته أصلاً. فكذا ينبغي أن يفهم السبب في علو الكواكب وتسفل الأرض والماء، وسائر أنواع الترتيب في الأجزاء العظام من أجزاء العالم. ولو ذهبنا نصف أجزاء العالم ونخصيها، ثم نذكر الحكمة في تركيبها، لطال الكلام. وكل من كان أوفر علماً بهذا التفصيل، كان أكثر إحاطة بمعنى اسم المصور. وهذا الترتيب والتصوير موجود في كل جزء من أجزاء العالم وإن صغر، حتى في النملة والذرة، بل في كل عضو من أعضاء النملة. بل الكلام يطول في شرح صورة العين التي هي أصغر عضو في الحيوان. ومن لم يعرف طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها ووجه الحكمة فيها، فلن يعرف صورتها، ولم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل. وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات، بل لكل جزء من كل حيوان ونبات.

تنبيه:

حظ العبد من هذا الاسم أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته وترتيبه، حتى يحيط بهيئة العالم وترتيبه. كله كأنه ينظر إليها، ثم ينزل من الكل إلى

التفصيل، فيشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمية، فيعلم أنواعها وعدداً وتركيبها والحكمة في خلقها وترتيبها، ثم يشرف على صفاتها المعنوية ومعانيها الشريفة التي بها إدراكاته وإرادته. وكذلك يعرف صورة الحيوانات وصورة النبات، ظاهراً وباطناً، بقدر ما في وسعه، حتى يحصل نقش الجميع وصورته في قلبه. وكل ذلك يرجع إلى معرفة صورة الجسمانيات. وهي معرفة مختصرة بالإضافة إلى معرفة ترتيب الروحانيات، وفيه يدخل معرفة الملائكة، ومعرفة مراتبهم، وما وكل إلى كل واحد منهم من التصرف في السموات والكواكب، ثم التصرف في القلوب البشرية بالهداية والإرشاد، ثم التصرف في الحيوانات بالإلهامات الهادية لها إلى مقنة الحاجات.

فهذا حظ العبد من هذا الاسم، وهو اكتساب الصورة العلمية المطابقة للصورة الوجودية. فإن العلم صورة في النفس مطابقة للمعلوم، وعلم الله، عز وجل، بالصور سبب لوجود الصور في الأعيان، والصورة الموجودة في الأعيان سبب لحصول الصور العلمية في قلب الإنسان. وبذلك يستفيد العبد العلم. بمعنى اسم المصور من أسماء الله، سبحانه وتعالى، ويصير أيضاً، باكتساب الصورة في نفسه، كأنه مصور، وإن كان ذلك على سبيل المجاز. فإن تلك الصور العلمية إنما تحدث فيه على التحقيق بخلق الله تعالى واختراعه، لا بفعل العبد، ولكن العبد يسعى في التعرض لفيضان رحمة الله تعالى عليه. **«إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»** [سورة الرعد / الآية: ١١] ولذلك قال ﷺ: **«إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامٍ دَهْرَكُمْ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا»**^(١).

وأما الخالق والبارئ، فلا مدخل للعبد أيضاً في هذين الاسمين إلا بنوع من المجاز بعيد. ووجهه، أن الخلق والإيجاد يرجع إلى استعمال القدرة بموجب العلم. وقد

(١) قال الميمني في (المجمع) (٢٣١/١٠): رواه الطبراني من حديث محمد بن مسلمة وفيه من لم أعرفهم. وورد حديث آخر بسند حسن **«افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يمسح دهراتكم وأن يؤمن روعاتكم»**.

خلق الله تعالى للعبد علماً وقدرةً، وله سبيل إلى تحصيل مقدراته على وفق تقديره وعلمه.

والأمور الموجودة تنقسم إلى ما لا يرتبط حصولها بقدرة العباد أصلاً، كالسما والكوكب والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك، وإلى ما لا حصول لها إلا بقدرة العباد، وهي التي ترجع إلى أعمال العباد، كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات. فإذا بلغ العبد في مجاهدة نفسه، بطريق الرياضة في سياستها وسياسة الخلق، مبلغاً ينفرد فيها باستنباط أمور لم يسبق إليها، ويقدر مع ذلك على فعلها والتزغيب فيها، كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل. إذ يقال لواضع الشطرنج: إنه الذي وضعه واخترعه، حيث وضع ما لم يسبق إليه. إلا أن وضع ما لا خير فيه، لا يكون من صفات المدح.

وكذلك في الرياضات والمجاهدات والسياسات والصناعات التي هي منبع الخيرات، صوراً وترتبيات يتعلمها الناس بعضهم من بعض، ويرتقى، لا عمالة، إلى أول مستنبط وواضع، فيكون ذلك الواضع كالمخترع لتلك الصورة والخالق المقدر لها، حتى يجوز إطلاق الاسم عليه مجازاً.

ومن أسماء الله تعالى ما يكون نقلها إلى العبد مجازاً، وهو الأكثر، ومنها ما يكون في حق العبد حقيقة، وفي حق الله تعالى مجازاً، كالصبور والشكور. ولا ينبغي أن تلاحظ المشاركة في الاسم، وتذهل عن هذا التفاوت العظيم الذي ذكرناه.

العقار

هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح. والذنوب من جملة القبايح التي سترها، بإسبال السر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة. والغفر هو السر. وأول ستره على العبد: أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه، مغطاة بجمال ظاهره. فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقذارة وفي القبح والجمال! فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره.

وسره الثاني: أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سر قلبه، حتى لا يطلع أحد على سره. ولو انكشف للخلق ما يحظر بهاله في بحاري وسواسيه وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة وسوء الظن بالناس، لمقتوه، بل سعوا في تلف روحه، وأهلكوه. فانظر كيف ستر عن غيره أسرارته وعورات.

وسره الثالث: مغفرتة ذنوبه التي كان يستحق الاقتضاح بها على ملا الخلق. وقد وعد أن يذل سيئاته حسنات، ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته، مهما مات على الإيمان.

تنبيه:

حفظ العبد من هذا الاسم أن يستر من غيره ما يجب أن يستر منه. فقد قال النبي ﷺ: «من ستر على مؤمن عورته ستر الله، عز وجل، عورته يوم القيامة»^(١). والمغتاب والمتجسس والمكافئ على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف. وإنما المتصف به من لا يفشي من خلق الله تعالى إلا أحسن ما فيه. ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص وعن قبح وحسن، فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن، فهو ذو نصيب من هذا الوصف. كما روي عن عيسى، صلوات الله عليه، أنه مرّ مع الخواريين بكلمة ميت قد غلبتته، فقالوا: (ما أنتن هذه الجيفة!) فقال عيسى، عليه السلام: «ما أحسن بياض أسنانه!»، تنبيهاً على أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء ما هو أحسن.

القهار

هو الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه، فيقهرهم بالإماتة والإذلال. بل الذي لا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره ومقدرته، عاجز في قبضته.

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٧٠/٥) ومسلم (٢٥٨٠) بلفظ: «السلام أمر المسلم لا يظلمه ولا يظلمه». من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة.

تنبيه:

القهار من العباد من قهر أعداءه. وأعدى عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه. فهي أعدى له من الشيطان الذي قد حذّر عداوته. ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان، إذ الشيطان يستهويه إلى الهلاك بواسطة شهواته. وإحدى حبائل الشيطان النساء. ومن فقد شهوة النساء لم يتصور أن يعقل بهذه الأحبولة. فكذلك من قهر هذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل. ومهما قهر شهوات النفس فقد قهر الناس كافة، فلم يقدر عليه أحد. إذ غاية أعدائه السعي في إهلاك بدنه، وذلك إحياء لروحه. فإن من مات عن شهواته في حياته، عاش في مماته. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ﴾ [سورة آل عمران / الآية: ١٦٩ و ١٧٠].

الوهاب

المهبة هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض. فلذا كثرت العطايا بهذه الصفة سُمي صاحبها وهاباً وجواداً. ولن يتصور الجود والمهبة حقيقة إلا من الله تعالى. فإنه الذي يعطي كل محتاج ما يحتاج إليه، لا لغرض عاجل ولا أجل. ومن وهب، وله في هبته غرض يناله عاجلاً وآجلاً، من ثناء أو مدح أو مودة أو تخلص من مذمة أو اكتساب شرف وذكر، فهو معامل معنّاض، وليس بوهاب ولا جواد. فليس العوض كله عينا يتناول، بل كل ما ليس بمحصل، ويقصد الواهب حصوله بالمهبة، فهو عوض. ومن وهب وجاد ليشرف أو ليثني عليه أو لثلا يُدَمِّم، فهو معامل. وإنما الجواد الحق هو الذي يفيض منه الفوائد على المستفيد، لا لغرض يعود إليه. بل الذي يفعل شيئاً، لو لم يُفْعَلْ لكان يقبح به، فهو بما يفعله متخلص، وذلك غرض وعوض.

تنبيه:

لا يتصور من العبد الجود والمهبة. فإنه ما لم يكن الفعل أولى به من الترك، لم يُقدَّم عليه. فيكون إقدامه لغرض نفسه. ولكن الذي يذل جميع ما يملكه، حتى

الروح، لوجه الله، عز وجل، فقط، لا للوصول إلى نعيم الجنة أو الحذر من عذاب النار أو لحظ عاجل أو أجل. تما يعدّ من حظوظ البشرية، فهو جدير بأن يسمّى وهاباً وجواداً. ودونه الذي يجود لينال نعيم الجنة. ودونه من يجود لينال حسن الأحدثة. وكل من لم يطلب عوضاً يتناول، سُمي جواداً عند من يظن أن لا عوض إلا الأعيان.

فإن قلت: فالذي يجود بكل ما يملكه، خالصاً لوجه الله تعالى، من غير توقع حظ عاجل أو أجل، كيف لا يكون جواداً، ولا حظ له أصلاً فيه؟ فنقول: حظّه هو الله تعالى ورضاؤه ولقاؤه والوصول إليه. وذلك هو السعادة العظمى التي يكتسبها الإنسان بأفعاله الاختيارية، وهو الحظ الذي تستحقّر سائر الحظوظ في مقابلته.

فإن قلت: فما معنى قولهم: إن العارف بالله تعالى هو الذي يعبد الله، عز وجل، خالصاً لله، لا لحظ وراءه؟ فإن كان لا يخلو فعل العبد عن حظ، فما الفرق بين من يعبد الله تعالى لله خالصاً، وبين من يعبد لحظ من الحظوظ؟ فاعلم أن الحظ عبارة، عند الجماهير، عن الأغراض أو الأعواض المشهورة عندهم. ومن تنزّه عنها، ولم يبق له مقصد إلا الله تعالى، فيقال: إنه قد برئ من الحظوظ، أي عما يعدّه الناس حظاً. وهو كقولهم: إن العبد يراعي سيّده، لا لسيّده، ولكن لحظ يناله من سيّده، من نعمة أو إكرام. والسيّد يراعي عبده، لا لعبده، ولكن لحظ يناله منه بخدمته. وأما الوالد فإنه يراعي ولده لذاته، لا لحظ يناله منه، بل لو لم يكن منه حظ أصلاً، لكان معنياً بمراعاته.

ومن طلب شيئاً لغيره، لا لذاته، فكأنه لم يطلبه. فإنه ليس غاية طلبه، بل غاية طلب غيره. كمن يطلب الذهب. فإنه لا يطلبه لذاته، بل ليتوصل به إلى المطعم والملبس. والمطعم والملبس لا يرادان لذاتهما، بل للتوصل بهما إلى جلب اللذة ودفع الألم. واللذة تراد لذاتها، لا لغاية أخرى وراءها، وكذا دفع الألم. فيكون الذهب

واسطة إلى الطعام. والطعام واسطة إلى اللذة، واللذة هي الغاية، وليست واسطة إلى غيرها. وكذلك الولد ليس واسطة في حقِّ الوالد، بل مطلوبه سلامة الولد لذات الولد، لأنَّ عين الولد حفظه.

فكذلك من يعبد الله، عزَّ وجلَّ، للجنة، فقد جعل الله، سبحانه وتعالى، واسطة طلبه، ولم يجعله غاية مطلبه. وعلامة الواسطة أنَّه لو حصلت الفائدة دونها لم تطلب، كما لو حصلت المقاصد دون الذهب لم يكن الذهب محبوباً ولا مطلوباً. فالمحبوب، بالحقيقة، الغاية المطلوبة دون الذهب. ولو حصلت الجنة لمن يعبد الله لأجلها دون عبادة الله، عزَّ وجلَّ، لَمَّا عَدَّ الله، فمحبوبه ومطلوبه الجنة إذاً، لا غير.

وأما من لم يكن له محبوب سوى الله، عزَّ وجلَّ، ولا مطلوب سواه، بل حفظه الابتهاج بقاء الله تعالى والقرب منه، والمرافقة مع الملائكة الأعلى المقربين من حضرته، فيقال: إنَّه يعبد الله تعالى الله، لا على معنى أنَّه غير طالب للحفظ، بل على معنى أنَّ الله، عزَّ وجلَّ، هو حفظه، وليس يغني وراءه حفظاً.

ومن لم يؤمن بلذة البهجة بقاء الله، عزَّ وجلَّ، ومعرفة والمشاهدة له والقرب منه، لم يشق إليه، ومن لم يشق إليه لم يتصور أن يكون ذلك من حفظه، فلم يتصور أن يكون ذلك مقصده أصلاً. فلذلك لا يكون في عبادة الله تعالى إلاَّ كالأجير السوء، لا يعمل إلاَّ بأجرة طمع فيها. وأكثر الخلق لم يدركوا هذه اللذة ولم يعرفوها، ولا يفهمون لذة النظر إلى وجه الله، عزَّ وجلَّ، وإنما إيمانهم بذلك من حيث النطق باللسان. فأما بواطنهم، فإنَّها مائلة إلى التلذذ بقاء الحور العين، ومصنفة به فقط. فافهم من هذا أنَّ البراءة من الخطيئة محال، إن كنت تُحَوِّزُ أن يكون الله تعالى، أي لقاءه والقرب منه، ممَّا يستسى حفظاً؛ وإن كان الحفظ عبارة عما يعرفه الجماهير ونميل إليه قلوبهم، فليس هذا حفظاً؛ وإن كان عبارة عما حصوله أوفى من عدمه في حقِّ العبد، فهو حفظ.

الرزاق

هو الذي خلق الأرزاق والمرزقة، وأوصلها إليهم، وخلق لهم أسباب التمتع بها. والرزق رزقان:

ظاهر: وهي الأقوات والأطعمة، وذلك للظواهر وهي الأبدان. وباطن: وهي المعارف والمكاشفات، وذلك للقلوب والأسرار. وهذا أشرف الرزقين، فإنَّ ثمرته حياة الأبد. وثمره الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريضة الأمد. والله، عزَّ وجلَّ، هو المتولَّى لخلق الرزقين والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين، ولكنه يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر.

تنبيه:

غاية حفظ العبد من هذا الوصف أمران:

أحدهما: أن يعرف حقيقة هذا الوصف، وأنَّه لا يستحقه إلاَّ الله، عزَّ وجلَّ، فلا ينتظر الرزق إلاَّ منه ولا يتوكل فيه إلاَّ عليه. كما روي عن حاتم الأصم، رحمه الله، أنَّه قال له رجل: من أين تأكل؟ فقال: من خزانته. فقال الرجل: أيلقي عليك الرزق من السماء؟ فقال: لو لم تكن الأرض له لكان يلقيه من السماء. فقال الرجل: إنكم تؤولون الكلام. فقال: لأنَّه لم ينزل من السماء إلاَّ الكلام. فقال الرجل: إني لا أقوى على مجادلتك. فقال: لأنَّ الباطل لا يقوى مع الحق.

الثاني: أن يرزقه علماً هادياً ولساناً مرشداً معلماً ويداً منفقة متصدقة، ويكون سبباً لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب، بأقواله وأعماله، ووصول الأرزاق إلى الأبدان بأفعاله وأعماله. وإذا أحبَّ الله عبداً أكثرَ حوائج الخلق إليه. ومهما كان واسطة بين الله وبين العباد في وصول الأرزاق إليهم، فقد نال حفظاً من هذه الصفة. قال رسول الله ﷺ: «الحازن المسلم الأمين الذي يُعطي ما أمر به طيبة به نفسه أحد المتصدقين»^(١). وأيدي العباد خزائن الله تعالى. فمن جعل يده خزانة أرزاق الأبدان، ولسانه خزانة أرزاق القلوب، فقد أكرم بشوب من هذه الصفة.

(١) رواه البخاري (٤٥/٤) ومسلم رقم (١٠٢٣).

الفتاح

هو الذي يفتح بعنايته كل منغلق، وبهدايته ينكشف كل مشكل. فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه، ويقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [سورة الفتح/ الآية: ١]، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه. ويقول: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [سورة فاطر / الآية: ٢]. ومن بيده مفاتيح الغيب ومفاتيح الرزق فبالحري أن يكون فتاحاً.

تنبيه:

ينبغي أن يتعطش العبد إلى أن يصير بحيث يفتح بلسانه مغاليق المشكلات الإلهية، وأن يتيسر معرفته ما يتيسر على الخلق من الأمور الدينية والدينية، ليكون له حظ من اسم الفتاح.

العليم

معناه ظاهر. وكماله أن يحيط بكل شيء علماً، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته. وهذا من حيث كثرة المعلومات، وهي لا نهاية لها. ثم يكون العلم في ذاته، من حيث الوضوح والكشف، على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه. ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه.

تنبيه:

للعبد حظ من وصف العليم لا يكاد يخفى، ولكن يفارق علمه علم الله تعالى في الخواص الثلاث: إحداهما: المعلومات في كثرتها، فإن معلومات العبد، وإن اتسعت، فهي محصورة في قلبه، فأنى يناسب ما لا نهاية له؟!

والثانية: أن كشفه وإن اتضح، فلا يبلغ الغاية التي لا يمكن وراءها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق. ولا تنكسر درجات الكشف، فإن البصيرة الباطنة كالבصر الظاهر. وفرق بين ما يتضح في وقت الإسفار وبين ما يتضح ضحوة النهار.

والثالث: أن علم الله، سبحانه وتعالى، بالأشياء غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه. وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها.

وإن اعتاص عليك فهم هذا الفرق، فانسب علم متعلم الشطرنج إلى علم واضعه، فإن علم الواضع هو سبب وجود الشطرنج، ووجود الشطرنج هو سبب علم المتعلم. وعلم الواضع سابق على الشطرنج، وعلم المتعلم مسبوق ومتأخر. فكذلك علم الله، عز وجل، بالأشياء سابق عليها وسبب لها، وعلمنا بخلاف ذلك. وشرف العبد بسبب العلم، من حيث أنه من صفات الله، عز وجل، ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف. وأشرف المعلومات هو الله تعالى، فلذلك كانت معرفة الله تعالى أفضل المعارف، بل معرفة سائر الأشياء أيضاً إنما تشرف لأنها معرفة لأفعال الله، عز وجل، أو معرفة للطريق الذي يقرب العبد من الله، عز وجل، أو الأمر الذي يسهل به الوصول إلى معرفة الله تعالى والقرب منه. وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف.

القابض الباسط

هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويسط الأرزاق للضعفاء. يسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقى فاقة، ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقى طاقة. ويقبض القلوب فيضيئها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعالیه وجلاله، ويسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله.

تنبيه:

القابض الباسط من العباد مَنْ أُلهم بدائع الحكَم وأوتي جوامع الكَلِم. فتارة ييسر قلوب العباد بما يذكرهم من آلاء الله، عز وجل، ونعمائه، وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه وفنون عذابه وبلائه وانتقامه من أعدائه، كما فعل رسول الله ﷺ، حيث قبض قلوب الصحابة عن الحرص على العبادة، حيث ذكر لهم أَنَّ الله عز وجل، يقول آدم عليه الصلاة والسلام، يوم القيامة: «أبعث بَعَثَ النّاس»، فيقول: «كم؟» فيقول: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِثَّةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ»^(١). فانكسرت قلوبهم حتّى فترّوا عن العبادة. فلما أصبح ورأهم على ما هم عليه من القبض والفتور، رَوّح قلوبهم وبسطهم، فقال: اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلّا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقعة في ذراع الدابة»^(٢).

الحافض الرافع

هو الذي يخفض الكفّار بالإشقاء، ويرفع المؤمنين بالإسعاد. يرفع أولياءه بالتقريب، ويخفض أعداءه بالإبعاد. ومن رفع مشاهدته عن المحسوسات والمتخيّلات، وإرادته عن ذميم الشهوات، فقد رفعه إلى أفق الملائكة المقربين. ومن قصر مشاهدته على المحسوسات، وهتمته على ما يشارك فيه البهائم من الشهوات، فقد خفضه إلى أسفل السافلين. ولا يفعل ذلك إلّا الله تعالى، فهو الحافض الرافع.

تنبيه:

حظّ العبد من ذلك أن يرفع الحق ويخفض الباطل. وذلك بأن ينصر الحقّ ويزجر المبطّل، فيعادي أعداء الله ليخفضهم، ويوالي أولياء الله ليرفعهم. ولذلك قال

(١) رواه البخاري (٣٣٥/٨) ومسلم رقم (٢٢).

(٢) الترمذي رقم (٣١٦٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الله تعالى لبعض أوليائه: «أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به راحة نفسك، وأماذكراك إيتاي فقد تشرّفت بي، فهل واليت في وليّاً وهل عاديت في عدوّاً؟».

المعزّ المذلّ

هو الذي يؤتي الملك من يشاء ويسلبه مَنْ يشاء. والملك الحقيقي إنما هو في الخلاص من ذلّ الحاجة وقهر الشهوة ووصمة الجهل. فمن رفع الحجاب عن قلبه حتّى شاهد جمال حضرته، ورزقه القناعة حتّى استغنى بها عن خلقه، وأمدّه بالقوّة والتأييد حتّى استولى بها على صفات نفسه، فقد أعزّه وآناه الملك عاجلاً. وسيعزّه في الآخرة بالتقريب ويناديّه: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فادْخُلِي فِي عِبَادِي. وادْخُلِي جَنَّتِي» [سورة الفجر / الآيات ٢٧-٣٠].

ومن مدّ عينه إلى الخلق حتّى احتاج إليهم، وسلط عليه الحرص حتّى لم يقنع بالكفاية، واستدرجه بمكره حتّى اغترّ بنفسه، وبقي في ظلمة الجهل، فقد أذلّه وسلبه الملك. وذلك صنع الله، عز وجل، كما يشاء حيث يشاء، فهو المعزّ المذلّ، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء. وهذا الدليل هو الذي يخاطب ويقال له: «وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ» [سورة الحديد / الآية: ١٤ و ١٥]. وهذا غاية الذلّ. وكلّ عبد استعمل في تيسير أسباب العزّ على يده ولسانه، فهو ذو حظّ من هذا الوصف.

السميع

هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السرّ والنجوى، بل ما هو أدقّ من ذلك وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؛ يسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب لهم. ويسمع بغير أصمخة وأذان، كما يفعل بغير جارحة ويتكلّم بغير لسان. وسمعه منزّه عن أن يتطرّق إليه الحدّثان. ومهما نزهت السميع عن تغيّر يعزّيه عند حدوث

المسموعات، وقدّسته عن أن يسمع بأذن أو بآلة وأداة، علمت أن السمع في حقّه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. ومن لم يدقّ نظره فيه وقع بالضرورة في محض التشبيه. فخذ منه حذرك، ودقّ فيه نظرك.

تنبيه:

للعبء، من حيث الحسن، حظّ في السمع، لكنّه قاصرٌ. فإنّه لا يدرك جميع المسموعات، بل ما قرب من الأصوات. ثم إن إدراكه بجراحة وأداة معرضة للآفات. فإن خفي الصوت قصر عن الإدراك، وإن بعد لم يدرك، وإن عظم الصوت ربّما بطل السمع واضمحَلّ.

وإنما حظّه الديني منه أمران:

أحدهما: أن يعلم أن الله، عزّ وجلّ، سميع، فيحفظ لسانه.

والثاني: أن يعلم أنّه لم يخلق له السمع إلّا لسمع كلام الله، عزّ وجلّ، وكتابه الذي أنزله، وحديث رسول الله ﷺ؛ فيستفيد به الهداية إلى طريق الله، عزّ وجلّ، فلا يستعمل سمعه إلّا فيه.

البصير

هو الذي يشاهد ويرى حتّى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. وإبصاره أيضاً منزّه عن أن يكون بحدقة وأجفان، ومقلّس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان. فإنّ ذلك من التغيّر والتأثر المقتضي للحدثان. وإذا نُزّه عن ذلك كان البصر في حقّه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات. وذلك أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المربّيات.

تنبيه:

حظّ العبد، من حيث الحسن، من وصف البصر، ظاهراً، ولكنه ضعيفٌ قاصر، إذ لا يمتدّ إلى ما بُعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرّب، بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر.

وإنما حظّه الديني منه أمران:

أحدهما: أن يعلم أنّه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت والسموات، فلا يكون نظره إلّا عبثاً. قيل لعيسى، عليه السلام: «هل أحد من الخلق مثلك؟» فقال: «من كان نظره عبثاً وصمته فكرة وكلامه ذكراً؛ فهو مثلي».

والثاني: أن يعلم أنّه يرى من الله، عزّ وجلّ، وسميع، فلا يستهين بنظره إليه وإطلاعه عليه. ومن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله، فقد استهان بنظر الله، عزّ وجلّ. والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة. فمن قارف معصية وهو يعلم أنّ الله، عزّ وجلّ، يراه، فما أجمره وما أخسره، ومن ظنّ أنّ الله تعالى لا يراه، فما أظلمه وأكفره.

الحكّم

وهو الحاكم المحكّم والقاضي المسلّم، الذي لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه. ومن حكمه في حق العباد أن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، وأنّ الأبرار لفي نعيم، وأنّ الفجار لفي حليم. ومعنى حكمه للبرّ والفاجر بالسعادة والشقاوة أنّه جعل البرّ والفجور سبباً يسوق صاحبهما إلى السعادة والشقاوة، كما جعل الأدوية والسموم أسباباً تسوق متناوليهما إلى الشقاء والهلاك.

وإذا كان معنى الحكمة ترتيب الأسباب وتوجيهها إلى المسبّبات، كان المتصف بها على الإطلاق حكماً مطلقاً، لأنّه مسبّب كلّ الأسباب، حملتها وتفصيلها. ومن الحكّم ينشعب القضاء والقدر. فتدبيره أصل وضع الأسباب، ليتوجّه إلى المسبّبات حكمه. ونصبه الأسباب الكلّية، الأصلية، الثابتة، المستقرّة التي لا تزول ولا تحول - كالأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك، وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغيّر ولا تنعدم - إلى أن يبلغ الكتاب أجله، قضاه. كما قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَنَ عَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت / الآية: ١٢].

وتوجیه هذه الأسباب، بحركاتها المتناسبة، المحدودة، المقدرة، المحسوبة، إلى المسببات الحادثة منها، لحظة بعد لحظة؛ قدره. فالحكم هو التدبير الأول الكلّي، والأمر الأزلي الذي هو كالمصير. والقضاء هو الوضع الكلّي للأسباب الكلّية الدائمة. والقدر هو توجیه الأسباب الكلّية بحركتها المقدرة، المحسوبة إلى مسبباتها، المحدودة المحدودة، بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص. ولذلك لا يخرج عن قضائه وقدره شيء.

ولا تفهم ذلك إلا بمثال: ولعلك شاهدت صندوق الساعات التي بها يتعرف أوقات الصلوات. وإن لم تشاهده، فجملة ذلك أنه لا بد فيه من آلة على شكل أسطوانة تحوي مقداراً من الماء معلوماً، وآلة أخرى مجوّفة موضوعة فيها فوق الماء، وخيط مشدود أحد طرفيه في هذه الآلة المجوّفة، وطرفه الآخر في أسفل ظرف صغير، موضوع فوق الأسطوانة المجوّفة. وفيه كرة، وتحت طاس، بحيث لو سقطت الكرة وقعت في الطاس وسمع طنينها. ثم يثقب أسفل الآلة الأسطوانية ثقب بقدر معلوم، ينزل الماء منه قليلاً قليلاً. فإذا انخفض الماء، انخفضت الآلة المجوّفة الموضوعة على وجه الماء، فامتدّ الخيط المشدود بها، فحرك الظرف الذي فيه الكرة تحريكاً يقربه من الانتكاس، إلى أن ينتكس، فتندرج منه الكرة وتقع في الطاس وتطن. وعند انقضاء كلّ ساعة تقع واحدة.

وإنما يتقدّر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء وانخفاضه، وذلك بتقدير سعة الثقب الذي يخرج منه الماء. ويُعرف ذلك بطريق الحساب. فيكون نزول الماء بمقدار مقدّر معلوم، بسبب تقدير سعة الثقب بقدر معلوم. ويكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار، وبه يتقدّر انخفاض الآلة المجوّفة، وانجرار الخيط المشدود بها، وتولّد الحركة في الظرف الذي فيه الكرة. وكلّ ذلك يتقدّر سببه، لا يزيد ولا ينقص. ويمكن أن يُجعل وقوع الكرة في الطاس سبباً لحركة أخرى، وتكون الحركة الأخرى سبباً لحركة ثالثة، وهكذا إلى درجات كثيرة حتّى تتولّد منه حركات عجيبة مقدّرة بمقادير محدودة. وسببها الأول نزول الماء بقدر معلوم.

فإذا تصوّرت هذه الصورة، فاعلم أنّ واضعها يحتاج إلى ثلاثة أمور: أولها: التدبير: وهو الحكم بأنّه ما الذي ينبغي أن يكون من الآلات والأسباب والحركات، حتّى يؤدي إلى حصول ما ينبغي أن يحصل. وذلك هو الحكم. والثاني: إيجاد هذه الآلات التي هي الأصول، وهي الآلة الأسطوانية لتحوي الماء، والآلة المجوّفة لتوضع على وجه الماء، والخيط المشدود به، والظرف الذي فيه الكرة، والطاس الذي يقع فيه الكرة. وذلك هو القضاء.

والثالث: نصب سبب يوجب حركة مقدّرة، محسوبة، محدودة، وهو ثقب أسفل الآلة ثقباً مقدّر السعة، ليحدث بنزول الماء منها حركة في الماء تؤدي إلى حركة وجه الماء بنزوله، ثمّ إلى حركة الآلة المجوّفة الموضوعة على وجه الماء، ثمّ إلى حركة الخيط، ثمّ إلى حركة الظرف الذي فيه الكرة، ثمّ إلى حركة الكرة، ثمّ إلى الصدمة بالطاس إذا وقعت فيه، ثمّ إلى الطنين الحاصل منها، ثمّ إلى تنبيه الحاضرين وإسماعهم، ثمّ إلى حركاتهم في الاشتغال بالصلوات والأعمال عند معرفتهم انقضاء الساعة. وكلّ ذلك يكون بقدر معلوم ومقدار مقدّر، بسبب تقدّر جميعها بقدر الحركة الأولى، وهي حركة الماء.

فإذا فهمت أنّ هذه الآلات أصول لا بدّ منها للحركة، وأنّ الحركة لا بدّ من تقدّرها ليتقدّر ما يتولّد منها، فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدرة، التي لا يتقدّم منها شيء ولا يتأخّر إذا جاء أجلها، أي حضر سببها، وكلّ ذلك بمقدار معلوم؛ وأنّ الله بالغ أمره، إذ جعل الله لكلّ شيء قدراً. فالسماوات والأفلاك والكواكب والأرض والبحر والهواء وهذه الأجسام العظام في العالم كتلك الآلات. والسبب المحرك للأفلاك والكواكب والشمس والقمر بحساب معلوم كتلك الثقب الموجهة لنزول الماء بقدر معلوم. وإفضاء حركة الشمس والقمر والكواكب إلى حصول الحوادث في الأرض كإفضاء حركة الماء إلى حصول تلك الحركات المفضية إلى سقوط الكرة، المعرفة لانقضاء الساعة.

ومثال تداعي حركات السماء إلى تغيرات الأرض، هو أن الشمس بحركتها إذا بلغت إلى المشرق، واستضاء العالم، وتيسر على الناس الإبصار، فيتيسر عليهم الانتشار في الأشغال. وإذا بلغت المغرب، تعذر عليهم ذلك، فرجعوا إلى المساكن. وإذا قربت من وسط السماء وسمت رؤوس أهل الأقاليم، حمى الهواء واشتد القيظ، وحصل نضج الفواكه. وإذا بعدت، حصل الشتاء واشتد البرد. وإذا توسّطت، حصل الاعتدال وظهر الربيع، وأنبتت الأرض وظهرت الخضرة. وقس بهذه الأمور المشهورات التي تعرفها الغرائب التي لا تعرفها.

واختلاف هذه الفصول كلها مقدّر بقدر معلوم لأنها منوطة بحركات الشمس والقمر. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن / الآية: ٥]، أي: حركتهما بحساب معلوم. فهذا هو التقدير. ووضع الأسباب الكليّة هو القضاء والتدبير الأوّل الذي هو كلمح البصر هو الحكيم. والله تعالى حكّم عدلٌ باعتبار هذه الأمور. وكما أنّ حركة الآلة والخيوط والكرة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة، بل ذلك هو الذي أراد بوضع الآلة، فكذلك كلّ ما يحدث في العالم من الحوادث، شرّها وخيرها، ونفعها وضرها، غير خارج عن مشيئة الله، عزّ وجلّ. بل ذلك مراد الله تعالى، ولأجله دبر أسبابه، وهو المعنى بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود / الآية: ١١٩].

وتفهم الأمور الإلهيّة بالأمثلة العرفيّة عسير، ولكن المقصود من الأمثلة التنبيه. فدع المثال، وتنبّه للغرض. واحذر من التمثيل والتشبيه.

لنبيه:

قد فهمت من المثال المذكور ما إلى العبد من الحكيم والتدبير والقضاء والتقدير، وذلك أمر يسير. وإنّما الخطير منه ما إليه في تدبير الرياضيات والمجاهدات، وتقدير السياسات التي تقضي إلى مصالح الدين والدنيا. وبذلك استخلف الله عباده في الأرض واستعمرهم فيها لينظر كيف يعملون.

وإنّما الخطأ الديني من مشاهدة هذا الوصف لله تعالى أن يعلم أنّ الأمر مفروغ منه وليس بالأثف، وقد جفّ القلم بما هو كائن، وأن الأسباب قد توجهت إلى مسبباتها، وانسياقها إليها في أحيانها وآجالها حتم واجب. فكلّ ما يدخل في الوجود فإنّما يدخل بالوجوب. فهو واجب أن يوجد، وإن لم يكن واجباً لذاته، ولكن واجب بالقضاء الأزلي الذي لا مردّ له. فيعلم أنّ المقدور كائن وأنّ الهمّ فضل. فيكون العبد في رزقه مجعلاً في الطلب^(١)، مطمئن النفس، ساكن الجأش، غير مضطرب القلب.

فإن قلت: فيلزم منه إشكالان:

أحدهما: أنّ الهمّ كيف يكون فضلاً وهو أيضاً مقدور، لأنّه قدّر له سبب إذا جرى سببه كان حصول الهمّ واجباً؟

والثاني: أنّ الأمر إذا كان مفروغاً منه فقيم العمل وقد فرغ هو عن سبب السعادة والشقاوة؟

فالجواب عن الأوّل: أنّ قولهم: المقدور كائن والهمّ فضل، ليس معناه أنّه فضل على المقدور، خارج عنه، بل أنّه فضل، أي لغو لا فائدة فيه، فإنّه لا يدفع المقدور ولأنّ سبب الهمّ بما يُتوقع كونه هو الجهل الخفض، لأنّ ذلك إن قدّر كونه، فالخدر والهمّ لا يدفعه، وهو استعجال نوع من الألم خوفاً من وقوع الألم. وإن لم يقدر كونه، فلا معنى للهمّ به. فيهذين الوجهين كان الهمّ فضلاً.

وأما العمل، فجوابه قوله ﷺ: «اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له»^(٢) ومعناه أنّ من قدّرت له السعادة، قدّرت بسبب، فيتيسر له أسبابها، وهو الطاعة. ومن قدّرت له الشقاوة - والعياذ بالله - قدّرت بسبب، وهو بطالته عن مباشرة أسبابها.

(١) إشارة إلى الحديث «إن روح القدس نفث روعي أنّه لن يموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها» وهو حديث صحيح. انظر جامع الأصول (١٠/١١٧).

(٢) رواه البخاري رقم: (٤٣١/١١) ومسلم رقم: (٢٦٤٩) وأبو داود (٤٧٠٩).

وقد يكون سبب بطالته أن يستقرّ في خاطره: إني إن كنت سعيداً فلا أحتاج إلى العمل، وإن كنت شقيماً فلا ينفعني العمل. وهذا جهل، فإنه لا يدري أنه إن كان سعيداً فإنما يكون سعيداً لأنه يجري عليه أسباب السعادة من العلم والعمل، وإن لم يتيسر له ذلك ولم يجز عليه، فهو أماره شقاوته.

ومثاله الذي يتمنى أن يكون فقيهاً بالغا درجة الإمامة، فيقال له: اجتهد وتعلم وواظب، فيقول: إن قضى الله عز وجلّ لي في الأزل بالإمامة، فلا أحتاج إلى الجهد، وإن قضى لي بالجهل، فلا ينفعني الجهد. فيقال له: إن سلط عليك هذا الخاطر، فهذا يدلّ على أنه قضى لك بالجهل. فإن من قضى له في الأزل بالإمامة، فإنما يقضيها بأسبابها، فيجري عليه الأسباب ويستعمله بها، ويدفع عنه الخواطر السيئة تدعوه إلى الكسل والبطالة. بل الذي لا يجتهد لا ينال درجة الإمامة قطعاً، والذي يجتهد ويتيسر له أسبابها، يصدق رجاؤه في بلوغها إن استقام على جهده إلى آخر أمره ولم يستقبله عائق يقطع عليه الطريق. فكذلك ينبغي أن يفهم أنّ السعادة لا ينالها إلا من أتى الله بقلب سليم. وسلامة القلب صفة تكتسب بالسعي، كفقه النفس وصفة الإمامة، من غير فرق.

نعم، العباد في مشاهدة الحكم على درجات. فمن ناظر إلى الخاتمة أنه بماذا يجتم له؛ ومن ناظر إلى السابقة أنه بماذا قضى له في الأزل، وهو أعلى لأن الخاتمة تبع السابقة؛ ومن تارك للماضي والمستقبل هو ابن وقته، فهو ناظر إليه، راضٍ بمواقع قدر الله عز وجلّ، وما يظهر منه، وهو أعلى مما قبله؛ ومن تارك للحال والماضي والمستقبل، مستغرق القلب بالحكم، ملّازم في الشهود، وهذه هي الدرجة العليا.

العدل

معناه العادل، وهو الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور والظلم. ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله، ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله. فمن أراد أن

يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط علماً بأفعال الله تعالى من أعلى ملكوت السموات إلى منتهى الثرى. حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع البصر فما رأى من فطور، ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير، وقد بهره جمال الحضرة الربوبية وحيره اعتدالها وانتظامها، فعند ذلك يعلق بفهمه شيء من معاني عدله، تعالى وتقدس.

وقد خلق أقسام الموجودات، جسمانياتها وروحانياتها، كاملها وناقصها، وأعطى كلّ شيء خلقه، وهو بذلك جواد، وربّها في مواضعها اللاتقة بها، وهو بذلك عدل. فمن الأجسام العظام في العالم الأرض والماء والهواء والسموات والكواكب. وقد خلقها وربّها، فوضع الأرض في أسفل السافلين، وجعل الماء فوقها والهواء فوق الماء والسموات فوق الهواء. ولو عكس هذا الترتيب لبطل النظام.

ولعل شرح وجه استحقاق هذا الترتيب في العدل والنظام مما يصعب على أكثر الأفهام، فلننزل إلى درجة العوام، ونقول: لينظر الإنسان إلى بدنه، فإنه مركّب من أعضاء مختلفة، كما أنّ العالم مركّب من أجسام مختلفة، فأول اختلافه أنه ركب من العظم واللحم والجلد، وجعل العظم عماداً مستبطناً، واللحم صواناً له مكتنفاً إياه، والجلد صواناً للحم. فلو عكس هذا الترتيب وأظهر ما أبطن، لبطل النظام.

وإن خفي عليك هذا، فقد خلق للإنسان أعضاء مختلفة مثل اليد والرجل والعين والأنف والأذن. فهو بخلق هذه الأعضاء جواد، وبوضعها مواضعها الخاصة عدل. لأنه وضع العين في أولى المواضع بها من البدن. إذ لو خلقها على القفا أو على الرجل أو على اليد أو على قمة الرأس، لم يخف ما يتطرق إليه من النقصان والتعرض للآفات. وكذلك علّق اليدين من المنكبين، ولو علقهما من الرأس أو من الحنق أو من الركبتين، لم يخف ما يتولّد منه من الخلل. وكذلك وضع جميع الحواس في الرأس، فإنها جواسيس، لتكون مشرفة على جميع البدن. فلو وضعها في الرجل اختلّ نظامها قطعاً. وشرح ذلك في كلّ عضو يطول.

وبالجملة، فينبغي أن تعلم أنه لم يُخلق شيء في موضع إلا لأنه متعين له، ولو تيامن عنه أو تياسر أو تسفل أو تعلّى، لكان ناقصاً أو باطلاً أو فيحاً أو خارجاً عن المتناسب، كرهياً في النظر، وكما أن الأنف خلق على وسط الوجه، ولو خلق على الجبهة أو على الخد لتطرق نقصان إلى فوائده.

وإذا قوي فهمك على إدراك حكمته، فاعلم أن الشمس أيضاً لم يخلقها في السماء الرابعة، وهي واسطة السموات السبع؛ هزلاً بل ما خلقها إلا بالحق، وما وضعها إلا موضعها المستحق لها لحصول مقاصده منها. إلا أنك ربما تعجز عن درك الحكمة فيه لأنك قليل التفكير في ملكوت السموات والأرض وعجائبها. ولو نظرت فيها لرأيت من عجائبها ما تستحق فيه عجائب بدنك. وكيف لا، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. وليتك بمعرفة عجائب نفسك وتفرغت للتأمل فيها وفيما يكتنفها من الأجسام، فتكون بمن قال الله، عز وجل، فيهم: ﴿سُئِرَ بِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت / الآية: ٥٣]. ومن أين لك أن تكون بمن قال فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام / الآية: ٧٥]. وأنى تفتح أبواب السماء لمن استغرقه هم الدنيا واستعبده الحرص والهوى؟

فهذا هو الرمز إلى تفهيم مبدأ الطريق إلى معرفة هذا الاسم الواحد. وشرحه يفتقر إلى مجلدات، وكذا شرح معنى كل اسم من الأسماء. فإن الأسماء المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال، وكل ما في الوجود من أفعال الله تعالى. ومن لم يحيط علماً بتفاصيلها ولا بمجملتها، فلا يكون معه منها إلا محض التفسير واللغة. ولا مطمع في العلم بتفصيلها، فإنه لا نهاية له. وأمّا الجملة، فللعبد طريق إلى معرفتها، وبقدر اتساع معرفته فيها يكون حفظه من معرفة الأسماء. وذلك يستغرق العلوم كلها. وإنما غاية مثل هذا الكتاب الإيماء إلى مفاتها ومعاد جملها فقط.

تنبيه:

حفظ العبد من العدل لا يخفى. فأول ما عليه من العدل في صفات نفسه، وهو أن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين. ومهما جعل العقل خادماً للشهوة والغضب فقد ظلم. هذا جملة عدله في نفسه، وتفصيله مراعاة حدود الشرع كلها. وعدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه. وأمّا عدله في أهله وذويه، ثم في رعيته، إن كان من أهل الولاية، فلا يخفى.

وربما يظن أن الظلم هو الإيذاء، والعدل هو إيصال النفع إلى الناس، وليس كذلك. بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة على الأسلحة والكسب وفنون الأموال، ولكن فرق الأموال على الأغنياء، ووهب الأسلحة للعلماء وسلم إليهم القلاع، ووهب الكسب للأجناد وأهل القتال وسلم إليهم المساجد والمدارس، فقد نفع، ولكنه قد ظلم وعدل عن العدل، إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق به. ولو أدى المرضي بسقي الأدوية والفصد والحجامة والإجبار على ذلك، وأدى الجناة بالعقوبة قتلاً وقطعاً وضرباً، كان عدلاً؛ لأنه وضعها في مواضعها.

وحفظ العبد ديناً من مشاهدة هذا الوصف: الإيمان بأن الله، عز وجل، عدل؛ وأن لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله، وافق مرادة أو لم يوافق. لأن كل ذلك عدل، وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي. ولو لم يفعل ما فعله لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضرراً مما حصل، كما أن المريض لو لم يحتجم لتضرر ضرراً يزيد على ألم الحجامة. وبهذا يكون الله تعالى عدلاً. والإيمان به يقطع الإنكار والاعتراض، ظاهراً وباطناً. ومما أن لا يسب الدهر ولا ينسب الأشياء إلى الفلك ولا يعترض عليه، كما جرت به العادة، بل يعلم أن كل ذلك أسباب مسخرة، وأنها رُتبت ووجهت إلى المسببات أحسن ترتيب وتوجيه، بأقصى وجوه العدل واللطف.

اللطيف

إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف. فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في الإدراك تم معنى اللطف. ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله، سبحانه وتعالى. فأما إحاطته بالدقائق والخفايا، فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الحقي مكشوف في علمه كالجلي، من غير فرق. وأما رفقته في الأفعال ولطفه فيها، فلا يدخل أيضاً تحت الحصر، إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها. وبقدر اتساع المعرفة فيها تسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف. وشرح ذلك يستدعي تطويلاً، ثم لا يتصور أن يفي بعشر عشرين مجلدات كثيرة، وإنما يمكن التنبيه على بعض جملة.

فإن لطفه خلقه الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وحفظه فيها، وتغذيته بواسطة السرة، إلى أن يفصل فيستقل بالتناول بالغم، ثم إلهائه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل، من غير تعليم ومشاهدة. بل يتفقا البيضة عن الفرخ، وقد ألهمته التقاط الحب في الحال. ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغذاء باللبن عن السن، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام. ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن، وإلى أنياب للكسر، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع. ثم استعمال اللسان، الذي الغرض الأظهر منه النطق، في رد الطعام إلى المطحن كالحرفة. ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمتها، وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم، من مصلح الأرض وزارعها وساقبها وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها إلى غير ذلك، لكان لا يستوفي شرحه.

وعلى الجملة، فهو من حيث دبر الأمور حكيم، ومن حيث أوجدها حيوات، ومن حيث رتبها مصورات، ومن حيث وضع كل شيء موضعه عدل، ومن حيث لم

يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف. ولن يعرف حقيقة هذه الأسماء من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال.

ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم الطاقة. ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة، وهي العمر، فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد. ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة، وإخراج العسل من النحل، والإبريسم من الدود، والدر من الصدف. أعجب من ذلك خلقه من النطفة القذرة مستودعاً لمعرفته وحاملاً لأمانته ومشاهداً للملكوت سمواته. وهذا أيضاً لا يمكن إحصاؤه.

تنبيه:

حفظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله، عز وجل، والتلطف في الدعوة إلى الله تعالى، والهداية إلى سعادة الآخرة، من غير إزراء وعنف، ومن غير تعصب وخصام. وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشماثل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة، فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزيئة.

الخبير

هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تحرك ذرة، ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها. وهو بمعنى العليم، ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبيرة، ويسمى صاحبها خبيراً.

تنبيه:

حفظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه؛ وعالمه قلبه وبدنه، والخفايا التي يتصف القلب بها، من الغش والخيانة، والتطواف حول العاجلة، وإضمار الشر وإظهار الخير، والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه، لا يعرفها

إلا ذو حيرة بالغة، قد خبر نفسه ومارسها، وعرف مكرها وتلييسها وخدعها، فحاذرها وتشمر لمعاداتها، وأخذ الحذر منها. فذلك من العباد حدير بأن يستمى خبيراً.

الحليم

هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستغزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمل على المسارعة إلى الانتقام، مع غاية الاقتدار؛ عجلة وطيش، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَابِقَةٍ﴾ [سورة النحل / الآية: ٦١].

تنبية:

حظ العبد من وصف الحليم ظاهر، فالحلم من محاسن خصال العباد. وذلك مستغن عن الشرح والإطناب.

العظيم

اعلم أن اسم العظيم في أول الوضع إنما أطلق على الأجسام. يقال: هذا جسم عظيم، وهذا الجسم أعظم من ذلك الجسم، إذا كان امتداد مساحته في الطول والعرض والعمق أكثر منه. ثم هو ينقسم إلى عظيم بملا العين ويأخذ منها ماخذاً، وإلى ما لا يتصور أن يحيط البصر بجميع أطرافه، كالأرض والسماء. فإن القيل عظيم، ولكن البصر قد يحيط بأطرافه، فهو عظيم بالإضافة إلى ما دونه. وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها، وكذا السماء. فذلك هو العظيم المطلق في مدركات البصر.

فافهم أن في مدركات البصائر أيضاً تفاوتاً، فمنها ما تحيط العقول بكنهه حقيقته، ومنها ما تقصر العقول عنه. وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها، وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلاً بكنهه حقيقته، وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه، وذلك هو الله تعالى. وقد سبق بيان ذلك في الفن الأول.

تنبيه:

العظيم من العباد الأنبياء والعلماء الذين إذا عرف العاقل شيئاً من صفاتهم امتلأ بالهبة صدره، وصار مستوفى بالهبة قلبه، حتى لا يبقى فيه متسع. فالنبي العظيم في حق أمته والشيخ في حق مريده والأستاذ في حق تلميذه، إذ يقصر عقله عن الإحاطة بكنهه صفاته. فإن ساواه أو جاوزه لم يكن عظيماً بالإضافة إليه. وكل عظيم يفرض غير الله، عز وجل، فهو ناقص وليس بعظيم مطلق، لأنه إنما يظهر بالإضافة إلى شيء دون شيء، سوى عظمة الله تعالى، فإنه العظيم المطلق، لا بطريق الإضافة.

الغفور

بمعنى الغفار، ولكنه بشيء ينبي عن نوع مبالغة لا ينبئ عنها الغفار. فإن الغفار مبالغة في المغفرة بالإضافة إلى مغفرة متكررة مرة بعد أخرى، فالفعال ينبي عن كثرة الفعل، والفعول ينبي عن جودته وكماله وشموله. فهو غفور بمعنى أنه تام المغفرة والغفران، كاملها، حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة. والكلام عليه قد سبق.

الشكور

هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود. ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضاً يقال إنه شكر. فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله، عز وجل، لأن زيادته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة، فإن نعيم الجنة لا آخر له. والله، سبحانه وتعالى، يقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [سورة الحاقة / الآية: ٢٤]. وإن نظرت إلى معنى الثناء، فثناء كل من على فعل غيره. والرب، عز وجل، إذا أثنى على أعمال عباده، فقد أثنى على فعل نفسه، لأن أعمالهم من خلقه. فإن كان

الذي أعطى فأثنى شكوراً، فالذي أعطى وأثنى على المعطي أحق بأن يكون شكوراً. وثناء الله تعالى على عباده كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [سورة الأحزاب / الآية: ٣٥]، وكقوله: ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص / الآية: ٣٠]، وما يجري مجراه. فكل ذلك عطية منه.

تنبيه:

العبد يتصور أن يكون شاكراً في حق عبد آخر مرة بالثناء عليه بإحسانه إليه، وأخرى بمجازاته بأكثر مما صنعه إليه، وذلك من الخصال الحميدة. قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(١). وأما شكره لله، عز وجل، فلا يكون إلا بنوع من المجاز والتوسع. فإنه إن أثنى، فثناءه قاصر، لأنه لا يحصى ثناء عليه. وإن أطاع، فطاعته نعمة أخرى من الله عليه، بل عين شكره نعمة أخرى وراء النعمة المشكورة. وإنما أحسن وجوه الشكر لنعم الله، عز وجل، أن لا يستعملها في معاصيه بل في طاعته. وذلك أيضاً بتوفيق الله وتيسيره في كون العبد شاكراً لربه. وتصور ذلك كلام دقيق ذكرناه في كتاب الشكر من كتاب «إحياء علوم الدين»، فليطلب منه، فإن هذا الكتاب لا يحتمله.

العليّ

هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منقطعة عنه. وذلك لأنّ العليّ مشتق من العلوّ، والعلوّ مأخوذ من العلوّ المقابل للسفل. وذلك إما في درجات محسوسة، كالدرج والمراقي وجميع الموضوعات بعضها فوق بعض، وإما في الرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعاً من الترتيب العقليّ. فكلّ ماله الفوقية في المكان، فله العلوّ المكانيّ، وكلّ ماله الفوقية في الرتبة، فله العلوّ في الرتبة. والتدرجات العقلية

(١) رواه الرمزي (١٩٥٥)، والإمام أحمد في مسنده ٢٥٨/٢ و٣٢/٣ وراجعه في (المسند) (٢٥٨/٢، ٢٥٩، ٣٠٣، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢) أبو داود (٤٨١١). وقال الرمزي: حديث حسن صحيح.

مفهومة كالتدرجات الحسية. ومثال الدرجات العقلية هو التفاوت الذي بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص. فلذا قدّرت شيئاً، فهو سبب لشيء ثان، وذلك الثاني سبب لثالث، والثالث لرابع، إلى عشر درجات مثلاً، فالعاشر واقع في الرتبة الأخيرة، فهو الأسفل الأدنى. والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية، فهو الأعلى. ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان، والعلوّ عبارة عن الفوقية.

فإذا فهمت معنى التدرج العقليّ، فاعلم أنّ الموجودات لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحقّ، سبحانه وتعالى، في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتّى لا يتصور أن يكون فوقه درجة. وذلك هو العليّ المطلق. وكلّ ما سواه فيكون عليّاً بالإضافة إلى ما دونه، ويكون دنياً أو سافلاً بالإضافة إلى ما فوقه.

ومثال قسمة العقل أنّ الموجودات تنقسم إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسبب، والسبب فوق المسبب فوقية بالرتبة، فالفوقية المطلقة ليست إلاّ لمسبب الأسباب. وكذلك ينقسم الموجود إلى ميت وحى، والحى ينقسم إلى ما ليس له إلاّ الإدراك الحسى، وهو البهيمية، وإلى ما له، مع الإدراك الحسى، الإدراك العقليّ. والذي له الإدراك العقليّ ينقسم إلى ما يعارضه في معلوماته الشهوة والغضب، وهو الإنسان، وإلى ما يسلم إدراكه عن معارضة المكدرات. والذي يسلم ينقسم إلى ما يمكن أن يُتلى به ولكن رزق السلامة، كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقّه، وهو الله، سبحانه وتعالى. وليس يخفى عليك في هذا التقسيم والتدرج أنّ الملك فوق الإنسان والإنسان فوق البهيمية، وأنّ الله، عز وجلّ، فوق الكلّ، فهو العليّ المطلق. فإنه الحى المحيى، العالم المطلق، الخالق لعلوم العلماء، المنزه المقدّس عن جميع أنواع النقص. فقد وقع الميت في الدرجة السفلى من درجات الكمال، ولم يقع في الطرف الآخر إلاّ الله تعالى. فهكذا ينبغي أن تفهم فوقيته وعلوّه.

فإن هذه الأسامي وضعت أولاً بالإضافة إلى إدراك البصر، وهو درجة العوالم. ثم لما تنبه الخواص لإدراك البصائر ووجدوا بينها وبين الأبصار موازنات، استعاروا منها الألفاظ المطلقة، وفهموا الخواص وأدركوها، وأنكرها العوالم الذين لم يجاوز إدراكهم عن الخواص التي هي رتبة البهائم، فلم يفهموا عظمتها إلا بالمساحة، ولا علوها إلا بالمكان، ولا فوقية إلا به. فإذا فهمت هذا، فقد فهمت معنى كونه فوق العرش، لأن العرش أعظم الأجسام، وهو فوق جميع الأجسام. والموجود المنزه عن التحديد والتقدير محدود الأجسام ومقاديرها، فوق الأجسام كلها في الرتبة. ولكن خص العرش بالذكر لأنه فوق جميع الأجسام، فلما كان فوقها كان فوق جميعها. وهو كقول القائل: الخليفة فوق السلطان، تنبيهاً به على أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان.

والعجب من الحشوي^(١) الذي لا يفهم من فوق إلا المكان، ومع ذلك إذا سئل عنت شخصين من الأكابر وقيل له: كيف يجلسان في الصدر والمخاف؟ فيقول: هذا يجلس فوق ذاك، وهو يعلم أنه ليس يجلس إلا بجانبه، وإنما يكون جالساً فوقه لو جلس على رأسه أو مكان مبنى فوق رأسه. ولو قيل له: كذبت، ما جلس فوقه ولا تحته ولكنه جلس بجانبه، استأزت نفسه من هذا الإنكار وقال: إنما أعني به فوقية الرتبة والقرب من الصدر، فإن الأقرب إلى الصدر، الذي هو المنتهى، فوق بالإضافة

(١) الحشوية: يفتح الشين وسكونها، فيالسكون نسبة إلى الحشر، وبالفتح نسبة إلى الحشا، لأن الحسن البصري أمر برحط الحشا للحلقة، أي جانبها، وهم طائفة اختلف العلماء في تعريفها، فإن ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر في تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التي كان أهل الحديث يلقبون بها، قال: ((وقد لقيتهم بالحشوية والناجدة والمجورة)) وقال النجاشي في كتاب (فرق الشيعة) ص ٧: (البزاة أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثوري، وشريك ابن عبد الله، وابن أبي ليلى، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس ونظرناهم من أهل الحشر والمجهور العظيم وقد سموا بالحشوية وبطلقوا هذا اللفظ أيضاً على (المشبهة) الذين يشبهون الله بخلقهم وكذا على (المهزمة) انظر شفاء الغليل (٧١)، رسائل الجاحظ (٢٨٨/٢) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

إلى الأبعد، ثم لا يفهم من هذا أن كل ترتيب له طرفان، يجوز أن يطلق على أحد طرفيه اسم الفوق والعلو، وعلى الطرف الآخر ما يقابله.

تنبيه:

العبد لا يتصور أن يكون علياً مطلقاً، إذ لا ينال درجة إلا ويكون في الوجود ما هو فوقها، وهو درجات الأنبياء والملائكة. نعم، يتصور أن ينال درجة لا يكون في جنس الإنس من يفوقه، وهي درجة نبينا محمد ﷺ ولكنه قاصر بالإضافة إلى العلو المطلق من وجهين، أحدهما أنه علو بالإضافة إلى بعض الموجودات، والآخر أنه علو بالإضافة إلى الوجود، لا بطريق الوجوب، بل يقارنه إمكان وجود إنسان فوقه. فالعلي المطلق هو الذي له فوقية بالإضافة، وبحسب الوجوب، لا بحسب الوجود الذي يقارنه إمكان نقيضه.

الكبير

هو ذو الكبرياء. والكبرياء عبارة عن كمال الذات، وأعني بكمال الذات كمال الوجود. وكمال الوجود يرجع إلى شيئين:

أحدهما: دوامه أزلاً وأبداً. فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص. ولذلك يقال للإنسان، إذا طالت مدة وجوده: إنه كبير، أي كبير السن طويل مدة البقاء، ولا يقال: عظيم السن، فالكبير يستعمل فيما لا يستعمل فيه العظيم. فإن كان ما طال مدة وجوده، مع كونه محدودة مدة البقاء، كبيراً، فالدائم الأزلي الأبدي الذي يستحيل عليه العدم أولى أن يكون كبيراً.

والثاني: أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود. فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملاً وكبيراً، فالذي حصل منه الوجود لجميع الموجودات أولى أن يكون كاملاً وكبيراً.

لنبيه:

الكبير من العباد هو الكامل الذي لا تقتصر عليه صفات كماله، بل تسري إلى غيره، فلا يحالسه أحد إلا ويفيض عليه شيئاً من كماله. وكمال العبد في عقله وورعه وعلمه. فالكبير من عباده هو العالم التقى المرشد للخلق، الصالح لأن يكون قدوة يُقتبس من أنواره وعلومه. ولذلك قال عيسى، عليه السلام: «مَنْ عِلْمٌ وَعَمَلٌ، فذاك يُدْعَى عَظِيماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ».

الحفيظ

هو الحافظ جداً. ولن يفهم ذلك إلا بعد فهم معنى الحفظ، وهو على

وجهين:

أحدهما: إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها، وبضادّه الإعدام. والله تعالى هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها، والتي لا يطول أمد بقائها، مثل الحيوانات والنبات وغيرهما.

والوجه الثاني: وهو أظهر المعنيين، أنّ معنى الحفظ صيانة المتعدييات والمتضادات بعضها عن بعض. وأعني لهذا التعادي ما بين الماء والنار، فإنّها يتعاديان بطباعهما، فإما أن يطفئ الماء النار، وإما أن تحيل النار الماء، إن غلبت الماء، بخاراً، ثمّ هواء. والتضادّ والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة، إذ تقهر إحداهما الأخرى، وكذلك بين الرطوبة واليبوسة. وسائر الأجسام الأرضيّة مركبة من هذه الأصول المتعادية، إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته. ولا بدّ له من رطوبة تكون غذاءً لبدنه، كالدم وما يجري مجراه. ولا بدّ من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه، خصوصاً ما صلب منها كالعظام، ولا بدّ من برودة تكسر سورة الحرارة حتى تعتدل ولا تحرق ولا تحلّل الرطوبات الباطنة بسرعة. وهذه متعدييات متنازعات.

وقد جمع الله، عزّ وجلّ، بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركّبات. ولولا حفظه تعالى إياها لتناقرت وتباعدت، وبطل امتزاجها واضمحلت تركيبها، وبطل المعنى الذي صارت مستعدّة لقبوله بالتركيب والمزاج. وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها، مرة، وبإمداد المغلوب منها، ثانياً.

أمّا التعديل: فهو أن يكون مبلغ قوّة البارد مثل مبلغ قوّة الحارّ، فإذا اجتمعا لم يقلب أحدهما الآخر بل يتدافعا، إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يُغلب، فيتقارمان ويقي قوام المركّب بتقاومهما وتعادلهما، وهو الذي يعبر عنه باعتدال المزاج. والثاني: إمداد المغلوب منهما، بما يعيد قوّته، حتّى يقاوم الغالب. ومثاله أنّ الحرارة تُفني الرطوبة وتجففها، لا محالة. فإذا غلبت، ضعفت البرودة والرطوبة، وغلبت الحرارة واليبوسة. ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب، وهو الماء. ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب. فخلق الله تعالى البارد الرطب مدداً للبرودة والرطوبة، إذا غلبتا، وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة، حتّى إذا غلب شيء عورض بضدّه فانقهر. وهذا هو الإمداد. وإنّما تمّ ذلك بخلق الأطعمة والأدوية، وخلق الآلات المصلحة لها، وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها. وكلّ ذلك لحفظ الله، عزّ وجلّ، أبدان الحيوانات والمركّبات من المتضادات.

وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخِل. وهو متعرّض للهلاك من أسباب خارجة، كسباع ضارية وأعداء منازعة. فحفظه من ذلك بما خلق له من الجوايس المنذرة بقرب العدو، وهي طلائعه، كالعين والأذن وغيرهما. ثمّ خلق له اليد الباطشة، والأسلحة الدافعة كالدرع والترس، والقاضية كالسيف والسكين. ثمّ ربّما يعجز مع ذلك عن الدفع، فأمدّه بألة الحرب، وهي الرجل للحيوان الماشي والجنّاح للطائر. وكذلك شمل حفظه، جلّت قدرته، كلّ ذرّة في ملكوت السموات والأرض، حتّى الحشيش الذي ينبت في الأرض يحفظ لبايه بالقشر

الصلب، وطراوته بالرطوبة. وما لا يحفظ بمجرّد القشر يحفظه بالشوك الثابت منه، ليندفع به بعض الحيوانات المتلفة له، فالشوك سلاح النبات، كالكرون والمحالب والأنياب للحيوانات.

بل كلّ قطرة من ماء فمعهها ملك حافظ يحفظها عن الهواء المضادّ لها. فإنّ الماء، إذا جعل في إناء وترك مدّة، استحال هواء، وسلب الهواء المضاد له صفة المائيّة عنه. ولو غَمَسَتْ الإصبع في ماء ورفعتها ونكستها تدرّت منها قطرة ماء، تبقى منكسة لا تنفصل، مع أنّ من شأنها الهويّ إلى أسفل. ولكنّها لو انفصلت وهي صغيرة، استولى الهواء عليها وأحاطها. ولا تزال تمكث متدلّية حتى يجتمع إليها بقية البل فتكبر القطرة، فتستحري على خرق الهواء بسرعة، ولا يستولي الهواء على إحالتها. وليس ذلك حفظاً منها لنفسها عن معرفة بضعفها وقوّة ضدها وحاجة استمدادها من بقية البل، وإنّما ذلك حفظ من ملك موكل بها، بواسطة معنى متمكن من ذاتها. وقد ورد في الخير «أنّه لا تنزل قطرة من المطر إلّا ومعها ملك يحفظها إلى أن تصل إلى مستقرّها من الأرض»^(١) وذلك حقّ. والمشاهدة الباطنة لأرباب البصائر قد دلّت عليه وأرشدت إليه، فأمنوا بالخير لا عن تقليد بل عن بصيرة.

والكلام أيضاً في شرح حفظ الله تعالى السموات والأرض وما بينهما طويلاً، كما في سائر الأفعال. وبه يعرف هذا الاسم، لا بمعرفة الاشتقاق في اللغة وتوهم معنى الحفظ على الإجمال.

تنبيه:

الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه وقلبه، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلاصة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان. فإنّه على شفا حرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار.

(١) لم أحده.

المقيت

معناه خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان، وهي الأطعمة، وإلى القلوب، وهي المعرفة. فيكون بمعنى الرزاق، إلّا أنّه أخصّ منه، إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت والقوت ما يُكتفى به في قوام البدن.

وإنّما أن يكون معناه المستولي على الشيء، القادر عليه. والاستيلاء يتمّ بالقدرة والعلم. وعليه يدلّ قوله، عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتِبًا﴾ [سورة النساء / الآية: ٨٥]، أي: مطلعاً قادراً، فيكون معناه راجعاً إلى القدرة والعلم. أمّا العلم فقد سبق، وأمّا القدرة فستأتي. ويكون بهذا المعنى وصفه بالمقيت أتمّ من وصفه بالقادر وخّده وبالعالم وخّده، لأنّه دالّ على اجتماع المعنيين، وبذلك يخرج هذا الاسم عن الترادف.

الحسيب

هو الكافي، وهو الذي من كان له كان حسبه، والله سبحانه وتعالى، حسيبٌ كلّ أحدٍ وكافيه.. وهذا وصف لا تتصوّر حقيقته لغيره، فإنّ الكفاية إنّما يحتاج إليها المكفّي لوجوده ولدوام وجوده ولكمال وجوده. وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لشيء إلّا الله عزّ وجلّ، فإنّه وحده كافٍ لكل شيء، لا لبعض الأشياء، أي هو وحده كافٍ ليحصل به وجود الأشياء، ويلوم به وجودها، ويكمل به وجودها.

ولا تظنّ أنّك إذا احتجت إلى طعام وشراب وأرض وسماء وشمس وغير ذلك، فقد احتجت إلى غيره، ولم يكن هو حسبك. فإنّه هو الذي كفّاك بمخلوق الطعام والشراب والأرض والسماء، فهو حسبك. ولا تظنّ أنّ الطفل الذي يحتاج إلى أمّ ترضعه وتعهّده، فليس الله حسيبه وكافيه. بل الله عزّ وجلّ، حسيبه وكافيه، إذ خلق أمّه وخلق اللبن في ثديها، وخلق له الهداية إلى تقامه، وخلق الشفقة والمودة في قلب الأمّ حتّى مكّته من الالتقام، ودعته إليه وحمّله عليه.

فالكفاية، إنما حصلت بهذه الأسباب، والله تعالى وحده هو المتفرد بخلقها لأجله. ولو قيل لك: إن الأم وحدها كافية للطفل وهي حسبه، لصدقت به ولم تقل: إنها لا تكفيه لأنه يحتاج إلى اللبن، فمن أين تكفيه الأم إذا لم يكن لبن؟ ولكنك تقول: نعم، يحتاج إلى اللبن، ولكن اللبن أيضاً من الأم، فليس محتاجاً إلى غير الأم. فاعلم أن اللبن ليس من الأم، بل هو والأم من الله، سبحانه وتعالى، ومن فضله وجوده. فهو وحده حسب كل أحد. وليس في الوجود شيء وحده هو حسب شيء سواه، بل الأشياء يتعلّق بعضها ببعض، وكلّها تتعلّق بقدرة الله، سبحانه وتعالى.

تنبيه:

ليس للعبد مدخل في هذا الوصف إلا بنوع من الجواز بعيد، وبالإضافة إلى بادئ الرأي وسابق الظنّ العامي. أمّا كونه مجازاً، فهو أنّه إن كان كافياً لطفله في القيام بتعهده، أو لتلميذه في تعليمه حتّى لم يفتقر إلى الاستعانة بغيره، كان واسطة في الكفاية ولم يكن كافياً، لأنّ الله، سبحانه وتعالى، هو الكافي، إذ لا قوام له بنفسه، ولا كفاية له بنفسه، فكيف يكون هو كفاية غيره!

وأمّا كونه بالإضافة إلى سابق الظنّ، هو أنّه، وإن قدر أنّه مستقلّ بالكفاية وليس بواسطة، فهو وحده لا يكفي، إذ يحتاج إلى محلّ قابل لفعله وكفايته، وهذا أقلّ الأمور، فالقلب الذي هو محلّ العلم لابدّ منه أولاً، ليكون هو كافياً في التعليم. والمعدة التي هي مستقرّ الطعام لابدّ منها لتكون كافية بإيصال الطعام إلى بدنه. وهذا، مع ما يحتاج إليه من أمور كثيرة، لا يحصيها ولا يدخل شيء منها في اختياره. فأقلّ درجات الفعل حاجته إلى فاعل وقابل. فالفاعل لا يكفي دون القابل أصلاً. وإنما صحّ هذا في حقّ الله، عزّ وجلّ، لأنّه خالق الفعل وخالق المحلّ القابل وخالق شرائط قبوله وما يكتنفه. ولكنّ بادئ الرأي ربّما يسبق إلى الفاعل، ولا يخطر بالبال غيره، فيظنّ أنّ الفاعل حسبه وحده، وليس كذلك.

نعم، الحظّ الذي منه للعبد أن يكون الله وحده حسبه، بالإضافة إلى همته وإرادته، هو أنّه لا يريد إلاّ الله، عزّ وجلّ. فلا يريد الجنة ولا يشغل قلبه بالنار ليحذر منها، بل يكون مستغرق الهمّ بالله تعالى وحده. وإذا كاشفه بجلاله قال: ذلك حسبي، فلست أريد غيره ولا أبالي، فأتني غيره أو لم يفت.

الجليل

هو الموصوف بنعوت الجلال. ونعوت الجلال هي العزّ والملك والتقّاس والعلم والغنى والقدرة وغيرها من الصفات التي ذكرناها. فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق، والموصوف ببعضها، جلّالته بقدر ما نال من هذه النعوت. فالجليل المطلق هو الله، عزّ وجلّ، فقط. فكأنّ الكبير يرجع إلى كمال الذات، والجليل إلى كمال الصفات، والعظيم يرجع إلى كمال الذات والصفات جميعاً، منسوباً إلى إدراك البصيرة إذا كان بحيث يستغرق البصيرة ولا تستغرقه البصيرة.

ثمّ صفات الجلال، إذا نسبت إلى البصيرة المدركة لها سمّيت جمالاً وسمّيت المتّصف به جميلاً. واسم الجميل في الأصل وضع للصورة الظاهرة المدركة بالبصر مهما كانت، بحيث تلائم البصر وتوافقها، ثمّ نقل إلى الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر، حتّى يقال: سيرة حسنة جميلة، ويقال: خلق جميل، وذلك يدرك بالبصائر لا بالأبصار والصورة الباطنة إذا كانت كاملة، متناسبة، جامعة جميع كمالاتها اللاتئة بها، كما ينبغي وعلى ما ينبغي، فهي جميلة بالإضافة إلى البصيرة الباطنة المدركة لها، وملائمة لها ملائمة يدرك صاحبها، عند مطالعتها، من اللذة والبهجة والاهتزاز أكثر ممّا يدركه الناظر بالبصر الظاهر إلى الصورة الجميلة. فالجميل الحقّ المطلق هو الله، سبحانه وتعالى، فقط، لأنّ كلّ ما في العالم من جمال وكمال وبهاء وحسن فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته. وليس في الوجود موجد له الكمال المطلق الذي لا مثوّة فيه، لا وجوباً ولا إمكاناً، سواه. ولذلك يدرك عارفه والناظر إلى جماله من البهجة والسرور واللذة والغبطة ما يستحقرّ معه نعيم الجنة وجمال الصورة

البصيرة، بل لا مناسبة بين جمال الصورة الظاهرة وبين جمال المعاني الباطنة المدركة بالبصائر.

وهذا المعنى كشفنا عنه الغطاء في كتاب المحبة من كتب (إحياء علوم الدين). فإذا ثبت أنه جليل وجميل، فكل جميل فهو محبوب ومعشوق عند مدرك جماله. فلذلك كان الله عز وجل محبوباً، ولكن عند العارفين، كما تكون الصورة الجميلة الظاهرة محبوبة، ولكن عند المبصرين لا عند العميان.

تنبيه:

الجليل الجميل من العباد من حسنت صفاته الباطنة التي تستلذها القلوب البصيرة. فأمّا جمال الظاهر فنازل القدر.

الكريم

هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى. وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفِيَ عاتب وما استقصى. ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء. فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف، فهو الكريم المطلق. وذلك لله، سبحانه وتعالى، فقط.

تنبيه:

هذه الخصال قد يتحمل العبد في اكتسابها، ولكن في بعض الأمور، ومع نوع من التكلف. فلذلك قد يوصف بالكريم. ولكنّه ناقص بالإضافة إلى الكريم المطلق. وكيف لا يوصف به العبد وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا للعنب الكرم، فإنّ الكرم هو الرجل المسلم»^(١). وقيل: إنّما وصف شجرة العنب بالكرم لأنه

(١) رواه البخاري رقم (٤٦٥/١٠) ومسلم (٢٢٤٧) وقال ابن الجوزي: إنّما نهى عن هذا لأن العرب كانوا يسمونها كرمًا لما يدعون من إحداثها في قلوب شاربها من الكرم فنهى عن تسميتها بما تمدح به لتأكيد ذمها وتغريمها وعلم أن قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بذلك الاسم.

لطيف الشجرة، طيب الثمرة، سهل القطاف، قريب المتناول، سليم عن الشوك والأسباب المؤذية، بخلاف النخل.

الرقيب

هو العليم الحفيظ. فمن راعى الشيء حتى لم يفعل عنه، ولاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوماً لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه، سمي رقيباً. فكأنه يرجع إلى العلم والحفظ، ولكن باعتبار كونه لازماً دائماً، بالإضافة إلى ممنوع عنه، محروس عن المتناول.

تنبيه:

وصف المراقبة للعبد إنّما يحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه. وذلك بأن يعلم أنّ الله تعالى رقيه وشاهده في كلّ حال، ويعلم أنّ نفسه عدوّ له، وأنّ الشيطان عدوّ له، وأنهما ينتهزان منه الفرص حتى يحملانه على الغفلة والمخالفة، فيأخذ منهما حذره بأن يلاحظ مكانهما وتلبسهما ومواضع انبعاثهما، حتى يسدّ عليهما المنافذ والمجاري. فهذه مراقبته.

المجيب

هو الذي يقابل مسألة السائلين بالإسعاف، ودعاء الداعين بالإجابة، وضرورة المضطرين بالكفاية، بل يُنعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء. وليس ذلك إلا لله، عزّ وعلا، فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، وقد علمها في الأزل، فدبّر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات، وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات.

تنبيه:

العبد ينبغي أن يكون مجيباً، أولاً لربه تعالى، فيما أمره به ونهاه عنه وفيما ندبه إليه ودعاه، ثم لعباده، فيما أنعم الله عزّ وجلّ عليه بالاعتقاد عليه، وفي إسعاف كلّ

سائل بما يسأله إن قدر عليه، وفي لطف الجواب إن عجز عنه. قال الله، عز وجل: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْهُ﴾ [سورة الضحى / الآية: ١٠]. وقال رسول الله ﷺ: «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدى إلي ذراع لقبلت»^(١). وكان حضوره الدعوات وقبوله الهدايا غاية الإكرام والإيجاب منه. فكم من خسيس متكبر يترفع عن قبول كل هدية، ولا يتبذل في حضور كل دعوة، بل يصون جاهه وكبره، ولا يبالي بقلب السائل المستدعي وإن تأذى بسببه. فلا حظ لمثله في معنى هذا الاسم.

الواسع

مشتق من السعة. والسعة تضاف مرة إلى العلم، إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة. وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم، وكيف ما قدر، وعلى أي شيء نزل. فالواسع المطلق هو الله، سبحانه وتعالى، لأنه إن نظر إلى علمه، فلا ساحل لبحر معلوماته، بل تنفذ البحار لو كانت مباداً لكلماته. وإن نظر إلى إحسانه ونعمه، فلا نهاية لمقدوراته. بل وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف، والذي لا ينتهي إلى طرف فهو أحق باسم السعة. والله، سبحانه وتعالى، هو الواسع المطلق، لأن كل واسع، بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق. وكل سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليه متصورة. وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة.

تنبيه:

سعة العبد في معارفه وأخلاقه. فإن كثرت علومه، فهو واسع بقدر سعة علمه، وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يضيقها خوف الفقر وغيظ الحسد وغلبة الحرص وسائر الصفات، فهو واسع. وكل ذلك فهو إلى نهاية. وإنما الواسع الحق هو الله تعالى.

(١) رواه البخاري (١٤٧/٥) و(٢١٣/٩) والكرام: (بضم الكاف وتخفيف الراء وآخره عين مهمله) من الدابة ما بين الركبتين إلى الساق.

الحكيم

ذو الحكمة. والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. وأجل الأشياء هو الله سبحانه. وقد سبق أنه لا يعرف كنه معرفته غيره. فهو الحكيم الحق. لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم، إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله، المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء ولا شبهة. ولا يتصف بذلك إلا علم الله، سبحانه وتعالى. وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها. ويتقن صنعها: حكيم. وكمال ذلك أيضاً ليس إلا الله تعالى، فهو الحكيم الحق.

تنبيه:

من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله، عز وجل، لم يستحق أن يسمى حكيماً، لأنه لم يعرف أجل الأشياء وأفضلها. والحكمة أجل العلوم، وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم، ولا أجل من الله، عز وجل. ومن عرف الله تعالى، فهو حكيم وإن كان ضعيف الفطنة في سائر العلوم الرسمية، كليل اللسان، قاصر البيان فيها. إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته به إلى معرفته بذاته، وشتان بين المعرفتين، فشتان بين الحكمتين. ولكنه مع بعده عنه فهو أنفس المعارف وأكثرها خيراً. ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

نعم، من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره، فإنه قلماً يتعرض للجزئيات، بل يكون كلامه كلياً، ولا يتعرض لمصالح العاجلة، بل يتعرض لما ينفع في العاقبة. ولما كان ذلك أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بما لله، عز وجل، ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية. ويقال للناس: حكيم.

وذلك مثل قول سيّد البشر، صلاة الرحمن وسلامه عليه: «رأس الحكمة مخافة الله»^(١). وقوله ﷺ: «الكيس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢). وقوله، عليه الصلاة والسلام: «ما قتل وكفى خير مما كثر وألمى»^(٣). وقوله، ﷺ: «من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(٤). وقوله، عليه أفضل الصلاة: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس»^(٥). وقوله: «البلاء موكل بالمنطق»^(٦). وقوله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٧). وقوله: «السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره»^(٨). وقوله: «الصمت حكمة وقليل فاعله»^(٩). وقوله: «القناعة مال لا

(١) قال العراقي في تفریح أحاديث (الإحياء): رواه أبو بكر ابن لال الفقيه في (مكارم الأخلاق) والبيهقي في (شعب الإيمان) رقم (٧٤٢ و ٧٤٣ و ٧٤٤) وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في (دلائل النبوة) من حديث عتبة بن عامر، ولا يصح أيضاً، والطبراني والقضاعي عن أنس رضي الله عنه وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٥٩) وقال: حسن، وابن ماجه رقم (٤٢٦٠) وفي سننه أبو بكر ابن عبد الله بن أبي مهيم الغساني وهو ضعيف كان قد سرق بيته فاختلط. والحاكم في (المستدرک) (٥٧/٢ و ٢٥١/٤) وصححه على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بقوله إلا والله أبو بكر واه، وأحمد في (المسند) (١٢٤/٤).

(٣) قال الميمني في (المجمع) (٢٥٦/١): رواه أبو يعلى (١٠٥٣) ورجاله رجال الصحيح غير صدقة بن الربيع وهو ثقة. (٤) رواه الترمذي رقم (٢٣٤٦) وابن ماجه (٣٣٤٩) وقال الترمذي: حسن. والحميدي (٤٣٩) والبخاري في (الأدب المفرد) (٣٠٠) وفي سننه عبد بن أبي شيملة لم يوثقه غير ابن حبان وشيخه مجهول لكن يشهد له حديث أبي الدرداء عند ابن حبان (٢٥٠٣) فهو حسن كما قال الترمذي.

(٥) رواه ابن ماجه (٤٢١٧) والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه والخراطي (٢١٩) وإسناده حسن وثمame: ((وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)).

(٦) رواه القضاعي في (مسند الشهاب) (٢٢٧ و ٢٢٨) وهو حديث ضعيف.

(٧) رواه الترمذي رقم (٢٣١٨) وابن ماجه (٢٩٧٦) والميمني في (المجمع) (١٨/٨) وله شاهد من حديث الحسين بن علي عند أحمد والطبراني، فالحديث صحيح. انظر (فيض القدير) (١٢/٦).

(٨) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٤٦٤) وابن ماجه (٤٦).

(٩) رواه القضاعي في (مسند الشهاب) (٢٤٠) عن أنس رضي الله عنه والفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما وهو حديث ضعيف.

ينفذ»^(١). وقوله: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»^(٢). فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً.

الودود

هو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثني عليهم. وهو قريب من معنى الرحيم، لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم، والمرحوم هو المحتاج والمضطّر. وأفعال الرحيم تستدعي مرحوماً ضعيفاً، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود. وكما أنّ معنى رحمته، سبحانه وتعالى، إرادته الخير للمرحوم، وكفايته له، وهو منزّه عن رقة الرحمة، فكذلك ودّه إرادته الكرامة والنعمة، وإحسانه وإنعامه، وهو منزّه عن ميل المودة والرحمة. لكن المودة والرحمة لا تراد في حق المرحوم والودود إلا لثمرتهما وفائدتهما، لا للركة والميل. فالفائدة هي لباب الرحمة والمودة، وروحهما. وذلك هو المتصور في حق الله، سبحانه وتعالى، دون ما هو مقارن لهما وغير مشروط في الإفادة.

تنبيه:

الودود من عباد الله من يريد لخلق الله كلّ ما يريد لنفسه. وأعلى من ذلك من يؤثرهم على نفسه. كمن قال واحد منهم: أريد أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق ولا يتأذون بها. وكمال ذلك أن لا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضب والحقد وما ناله من الأذى. كما قال رسول الله ﷺ: حيث كسرت رباعيته، وأدمي وجهه وضرب: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»^(٣). فلم يمنعه سوء صنيعهم عن

(١) رواه القضاعي في (مسند الشهاب) (٦٣) وهو حديث ضعيف.

(٢) رواه أبو نعيم في (الحلية) (٣٤/٥) والخطيب في (تاريخه) (٢٢٦/١٣) والبيهقي (٩٧١٧-٩٧١٦ و ٤٨).

والقضاعي في (مسند الشهاب) (١٥٨) وهو حديث ضعيف.

(٣) راجع البخاري (٢٤٩/١٢، ٢٥٠) ومسلم (١٧٩٢).

إرادته الخير لهم. وكما أمر، ﷺ، علياً رضي الله عنه، حيث قال: «إن أردت أن تسبق المقرين، فصيل من قطعك، وأعطي من حرمتك، واعفُ عمن ظلمك»^(١).

المجيد

هو الشريف ذاته، الجليل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله. كما أن شرف الذات إذا قارنه حسنُ الفعل سُمي مجداً. وهو الماجد أيضاً، ولكن أحدهما أدلُّ على المبالغة، وكأنه يجمع معاني اسم الجليل والوقاب والكريم. وقد سبق الكلام فيها.

الباعث

هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور. والبعث هو النشأة الآخرة. ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث، وذلك من أغمض المعارف. وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة، وغايتهم فيه تحيلهم أن الموت عدم والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم، مثل الإيجاد الأول. فظنهم أن الموت عدم، غلط، وظنهم أن الإيجاد الثاني مثل الإيجاد الأول غلط. فأما ظنهم أن الموت عدم، فهو باطل. بل القبر إما حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة^(٢). والميت إما من السعداء، وأولئك ليسوا ﴿أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. فَرَحِينٌ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿[سورة آل عمران/ الآية: ١٦٩ و ١٧٠]. وإما من الأشقياء، وهم أيضاً أحياء. ولذلك ناداهم رسول الله ﷺ، في وقعة بدر وقال: «إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» ثم لما قيل له: «كيف تنادي قوماً قد جُفُوا؟» قال: «ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم، لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»^(٣). والمشاهدة الباطنة دلّت أرباب البصائر على

(١) راجع: (مسند أحمد): ١٥٨/٤.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٤٦٢) وإسناده ضعيف. انظر جامع الأصول (١١/١٧٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤/٧) ومسلم (٢٨٧٥) ورواه أحمد في (المسند) (١٣١/٢).

أن الإنسان خلق للأبد وأنه لا سبيل عليه للعدم. نعم، تارة يقطع تضرفه عن الجسد فيقال: مات، وتارة يعاد إليه فيقال: أحيي وبعث، أي أحيي جسده. وكشف ذلك بالحقيقة مما لا يحتمله هذا الكتاب.

وأما ظنهم أن البعث ليس إيجاداً ثانياً، وهو مثل الإيجاد الأول، فغير صحيح، بل البعث إنشاء آخر، لا يناسب الإنشاء الأول أصلاً. وللإنسان نشأت كثيرة، وليست هي نشأتين فقط. ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الواقعة / الآية: ٦١]. ولذلك قال تعالى بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون / الآية: ١٤]. بل النطفة نشأة من التراب، والعلقة نشأة من النطفة، والمضغة نشأة من العلق، والروح نشأة من المضغة. ولشرف نشأة الروح وجلالته وكونه أمراً ربانياً، قال عند ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون / الآية: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء / الآية: ٨٥]. ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى، ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى. وكل نشأة طور، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة نوح / الآية: ١٤]. ثم ظهور خاصية الولاية لمن رزق تلك الخاصية نشأة أخرى. ثم ظهور خاصية النبوة بعد ذلك نشأة أخرى، وهي نوع من البعث، والله، سبحانه وتعالى، باعث الرسل، كما أنه الباعث يوم النشور.

وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز، ويعسر على المتميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل، فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل. فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل، كما أن العقل طور كمال وراء نشأة التمييز، والتمييز طور كمال وراء نشأة الخواص. وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم

ينالوه. حتى إنَّ كلَّ واحد ينكر ما لم يشاهده ولم يحصل له، ولا يؤمن بما غاب عنه. فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها، والنبوة وغرائبها، بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة، لأنهم لم يبلغوها بعد. ولو عرض طور العقل وعالمة وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وحجده وأحال وجوده. فمن آمن بشيء مما لم يبلغه، فقد آمن بالغيب، وذلك هو مفتاح السعادات.

وكما أنَّ طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله، فكذلك النشأة الآخرة، بل أبعد، فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى. وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقبها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال، حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كلِّ كمال، وتكون عند الله، عزَّ وجلَّ، بين ردِّ وقبول، وحجاب ووصول. فإن قبل رُقِّي إلى أعلى العُلِّيْن، وإلا رُدَّ إلى أسفل السافلين. والمقصود أن لا مناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم. ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف معنى اسم البعث. وشرح ذلك بطول، فلتجاوزوه.

تنبيه:

حقيقة البعث ترجع إلى إحساء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى. والجهل هو الموت الأكبر، والعلم هو الحياة الأشرف. وقد ذكر الله، سبحانه وتعالى، العلم والجهل في كتابه العزيز وسماههما حياة وموتاً. ومن رُقِّي غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة. فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله تعالى، فذلك نوع من الإحياء، وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء.

الشهيد

يرجع معناه إلى العليم مع خصوص إضافة، فإنَّ الله، عزَّ وجلَّ، عالم الغيب والشهادة. والغيب عبارة عمّا بطن، والشهادة عمّا ظهر، وهو الذي يشاهد. فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا

أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد. وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم. والكلام في هذا الاسم يقرب من الكلام في العليم والخبير، فلا نعيده.

الحقّ

هو في مقابلة الباطل، والأشياء قد تستبان بأضدادها. وكلّ ما يخبر عنه، فإنما باطل مطلقاً، وإما حقّ مطلقاً، وإما حقّ من وجه باطل من وجه. فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقاً، والواجب بذاته هو الحقّ مطلقاً، والممكن بذاته الواجب بغيره هو حقّ من وجه باطل من وجه. فهو من حيث ذاته لا وجود له، فهو باطل. وهو من جهة غيره مستفيد للوجود، فهو من هذا الوجه الذي يلي مفيد الوجود موجود. فهو من ذلك الوجه حقّ، ومن جهة نفسه باطل. فلذلك قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص / الآية: ٨٨]. وهو كذلك أزلاً وأبداً، ليس ذلك في حال دون حال، لأنَّ كلَّ شيء سواه، أزلاً وأبداً، من حيث ذاته، لا يستحقّ الوجود، ومن جهته يستحقّ، فهو باطل بذاته، حقّ بغيره. وعند هذا تعرف أنَّ الحقّ المطلق هو الموجود الحقيقي بذاته، الذي منه يأخذ كلُّ حقّ حقيقته.

وقد يقال أيضاً للمعقول الذي صادف به العقل الموجود حتى طابقه إنه حقّ. فهو من حيث ذاته يُسمّى موجوداً، ومن حيث إضافته إلى العقل الذي أدركه على ما هو عليه يسمّى حقّاً. فإذا، أحقّ الموجودات بأن يكون حقّاً هو الله تعالى، وأحقّ المعارف بأن تكون حقّاً هي معرفة الله، عزَّ وجلَّ، فإنَّه حقّ في نفسه، أي مطابق للمعلوم أزلاً وأبداً. ومطابقته لذاته لا لغيره، لا كالعالم بوجود غيره، فإنَّه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجوداً، فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلاً. وذلك الاعتقاد أيضاً لا يكون حقّاً لذات المعتقد، لأنَّه ليس موجوداً لذاته، بل هو موجود لغيره.

وقد يطلق ذلك على الأقوال، فيقال: قول حقّ وقول باطل. وعلى ذلك، فأحقّ الأقوال قولك: لا إله إلا الله، لأنَّه صادق أبداً وأزلاً، لذاته لا لغيره.

فإذاً، يطلق الحق على الوجود في الأعيان، وعلى الوجود في الأذهان، وهو المعرفة، وعلى الوجود الذي في اللسان، وهو النطق. فالحق الأشياء بأن يكون حقاً هو الذي يكون وجوده ثابتاً لذاته، أزلاً وأبدًا، ومعرفة حقاً أزلاً والشهادة له حقاً أزلاً وأبدًا. وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي، لا لغيره.

تنبيه:

حفظ العبد من هذا الاسم أن يرى نفسه باطلاً؛ ولا يرى غير الله، عز وجل، حقاً. والعبد إن كان حقاً، فليس حقاً بنفسه، بل هو حق بالله، عز وجل، فإنه موجود به لا بذاته، بل هو بذاته باطل لولا إيجاد الحق له. فقد أخطأ من قال: «أنا الحق»، إلا بأحد التأويلين:

أحدهما أن يعني أنه بالحق. وهذا التأويل بعيد، لأن اللفظ لا ينبئ عنه، ولأن ذلك لا يخصه، بل كل شيء سوى الحق فهو بالحق.

التأويل الثاني، أن يكون مستغرقاً بالحق حتى لا يكون فيه متسع لغيره. وما أخذ كلية الشيء واستغرقه، فقد يقال إنه هو، كما يقول الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدننا^(١)

ويعني به الاستغراق.

وأهل التصوف، لما كان الغالب عليهم رؤية فناء أنفسهم من حيث ذاتهم، كان الجاري على لسانهم من أسماء الله تعالى، في أكثر الأقوال والأحوال، هو الحق، لأنهم يلحظون الذات الحقيقية، دون ما هو هالك في نفسه.

وأهل الكلام، لما كانوا أبعد في مقام الاستدلال بالأفعال، كان الجاري على لسانهم في الأكثر اسم الباري، الذي هو بمعنى الخالق.

(١) البيت للحلاج. انظر ديوانه.

وأكثر الخلق يرون كل شيء سواه، فيستشهدون عليه بما يرونه. وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف / الآية: ١٨٥].

والصديقون لا يرون شيئاً سواه، فيستشهدون به عليه. وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت / الآية: ٥٣].

الوكيل

هو الموكل إليه الأمور. ولكن الموكل إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل، وليس ذلك إلا الله، سبحانه وتعالى. والموكل إليه ينقسم إلى من يستحق أن يكون موكولاً إليه، لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص، لأنه فقير إلى التفويض والتولية؛ وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكلة عليه، لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق. والوكيل أيضاً ينقسم إلى من يفى بما وُكِّلَ إليه وفاء تاماً من غير قصور، وإلى من لا يفى بالجميع. والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه، وهو ملى بالقيام بها، وفي إتمامها، وذلك هو الله تعالى فقط. وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في معنى هذا الاسم.

القوي المتين

القوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوة. والله، سبحانه وتعالى، من حيث إنه بالغ القدرة، تامها، قوي؛ ومن حيث إنه شديد القوة، متين. وذلك يرجع إلى معاني القدرة، وسيأتي ذلك.

الولي

هو المحب الناصر، ومعنى وده وعجته قد سبق. ومعنى نصرته ظاهر، فإنه يقمع أعداء الدين وينصر أوليائه. قال الله، سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

﴿آمَنُوا﴾ [سورة البقرة / الآية: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَذَلِكِ بَأْسٌ لِّمَن لَّمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ﴾ [سورة محمد / الآية: ١١]، أي لا ناصر لهم. وقال، عز وجل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [سورة المجادلة / الآية: ٢١].

تنبيه:

الولي من العباد من يحب الله، عز وجل، ويحب أولياءه وينصره وينصر أولياءه ويعادي أعداءه. ومن أعدائه النفس والشيطان، فمن خذلهما ونصر أمر الله تعالى ووالى أولياء الله وعادى أعداءه فهو الولي من العباد.

الحميد

هو المحمود المثنى عليه. والله، عز وجل، هو الحميد بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباد له أبداً. ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال، منسوبة إلى ذكر الذاكرين له، فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال.

تنبيه:

الحميد من العباد من حُمدت عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله كلها من غير مشوية. وذاك هو محمد ﷺ، ومن يقرب منه من الأنبياء ومن عداهم من الأولياء والعلماء. وكل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله، وإذا كان لا يخلو أحد عن مذمة ونقص، وإن كثرت محامده. فالحميد المطلق هو الله تعالى.

المُحصي

هو العالم، ولكن إذا أضيف العلم إلى المعلومات، من حيث يحصي المعلومات ويعدها ويحيط بها، سُمي إحصاء. والمُحصي المطلق هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه. والعبد، وإن أمكنه أن يُحصي بعلمه بعض المعلومات، فإنه يعجز عن حصر أكثرها. فمدخله في هذا الاسم ضعيف، كمدخله في أصل العلم.

المُبْدئ المَعِيد

معناه الموجد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله سُمي إبداء، وإذا كان مسبوقاً بمثله سُمي إعادة. والله، سبحانه وتعالى، بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يعيدهم، أي يحشرهم. والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود، وبه بدأت وبه تعود.

المُحْيي المُمِيت

هذا أيضاً يرجع إلى الإيجاد، ولكن الوجود إذ كان هو الحياة سُمي فعله إحياء، وإذا كان هو الموت سُمي فعله إماتة. ولا خالق للموت والحياة إلا الله، سبحانه وتعالى، فلا مُمِيت ولا مُحْيي إلا الله عز وجل. وقد سبقت الإشارة إلى معنى الحياة في اسم الباعث، فلا نعيده.

الحي

هو الفعّال الدّراك، حتّى إنّ من لا فعل له أصلاً ولا إدراك، فهو ميت. وأقل درجات الإدراك أن يشعر المدرك بنفسه، فما لا يشعر بنفسه فهو الجماد والميت. فالحيّ الكامل المطلق هو الذي يندرج جميع المدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله، حتّى لا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول. وذلك الله، عز وجل، فهو الحيّ المطلق، وكلّ حيّ سواه، فحياته بقدر إدراكه وفعله، وكلّ ذلك محصور في قلة. ثم إنّ الأحياء يتفاوتون فيه، فمراتبهم بقدر تفاوتهم، كما سبقت الإشارة إليه في مراتب الملائكة والإنس والبهائم.

القيوم

اعلم أنّ الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محلّ، كالأغراض والأوصاف، فيقال فيها: إنها ليست قائمة بأنفسها؛ وإلى ما لا يحتاج إلى محلّ، فيقال: إنه قائم بنفسه، كالجوهر. إلا أنّ الجوهر، وإن قام بنفسه مستغنياً عن محلّ يقوم به، فليس مستغنياً

عن أمور لابد منها لوجوده، وتكون شرطاً في وجوده. فلا يكون قائماً بنفسه، لأنه يحتاج في قوامه إلى وجود غيره، وإن لم يحتاج إلى محل. فإن كان في الوجود موجود يكفي ذاته بذاته، ولا قوام له بغيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، فهو القائم بنفسه مطلقاً. فإن كان مع ذلك يقوم به كل موجود، حتى لا يتصور للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به، فهو القيوم، لأن قوامه بذاته وقوام كل شيء به. وليس ذلك إلا الله، سبحانه وتعالى. ومدخل العبد في هذا الوصف بقدر استغناؤه عما سوى الله تعالى.

الواجد

هو الذي لا يعوزه شيء، وهو في مقابلة الفاقد. ولعل من فاته ما لا حاجة به إلى وجود لا يسمى فاقداً، والذي يحضره ما لا تعلق له بذاته ولا بكمال ذاته لا يسمى واجداً، بل الواجد من لا يعوزه شيء مما لا بد منه. وكل ما لا بد منه في صفات الإلهية وكمالها، فهو موجود لله، سبحانه وتعالى، فهو بهذا الاعتبار واجد، وهو الواجد المطلق. ومن عداه، إن كان واجداً لشيء من صفات الكمال وأسبابه، فهو فاقد لأشياء، فلا يكون واجداً إلا بالإضافة.

الماجد

بمعنى المجيد، كالعالم بمعنى العليم، لكن الفعل أكثر مبالغة. وقد سبق معناه.

الواحد

هو الذي لا يتجزأ ولا يشئ. أما الذي لا يتجزأ، فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم، فيقال: إنه واحد، بمعنى أنه لا جزء له. وكذا النقطة لا جزء لها. والله تعالى واحد، بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام في ذاته.

وأما الذي لا يشئ، فهو الذي لا نظير له، كالشمس مثلاً. فإنها، وإن كانت قابلة للانقسام بالوهم، متجزئة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام، فهي لا نظير لها، إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير. فإن كان في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه غيره فيه أصلاً، فهو الواحد المطلق أزلاً وأبداً. والعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير. وذلك بالإضافة إلى أبناء جنسه وبالإضافة إلى الوقت، إذ يمكن أن يظهر في وقت آخر مثله، وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع. فلا وحدة على الإطلاق إلا لله تعالى.

الصمد

هو الذي يُصمد إليه في الحوائج ويُقصد إليه في الرغائب، إذ ينتهي إليه مُنتهى السؤدد. ومن جعله الله تعالى مقصد عباده في مهمات دينهم ودنياهم، وأجرى على يده ولسانه حوائج خلقه، فقد أنعم عليه بحظ من معنى هذا الوصف. لكن الصمد المطلق هو الذي يُقصد إليه في جميع الحوائج، وهو الله، سبحانه وتعالى.

القادر المقتدر

معناها ذو القدرة، لكن المقتدر أكثر مبالغة. والقدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء متقدراً بتقدير الإرادة والعلم، واقعاً على وفقهما. والقادر هو الذي إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وليس من شرطه أن يشاء لا محالة. فإن الله قادر على إقامة القيامة الآن، لأنه لو شاء أقامها. فإن كان لا يقيمها، لأنه لم يشأها ولا يشاؤها، لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها، فلذلك لا يقدح في القدرة. والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعاً يتفرد به ويستغني فيه عن معاونته غيره، وهو الله تعالى.

وأما العبد، فله قدرة على الجملة ولكنها ناقصة، إذ لا يتناول إلا بعض الممكنات، ولا يصلح للاختراع، بل الله تعالى هو المخترع لمقدورات العبد بواسطة قدرته، مهما هيأ له جميع أسباب الوجود لمقدوره. ونحت هذا غور لا يحتمل مثل هذا الكتاب كشفه.

المقدم والمؤخر

هو الذي يقرب ويبعد، ومن قرّبه فقد قدّمه ومن أبعدّه فقد أخرّه. وقد قدّم أنبياءه وأوليائه بتقريبهم وهدايتهم، وأخر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم. والمملك إذا قرّب شخصين مثلاً، ولكن جعل أحدهما أقرب إلى نفسه، يقال: قدّمه، أي جعله قدّام غيره.

والقدّم تارة يكون في المكان وتارة يكون في الرتبة، وهو مضاف لا محالة إلى متأخر عنه. ولا بدّ فيه من مقصد هو الغاية بالإضافة إليه يتقدّم ما يتقدّم ويتأخر ما يتأخر. والمقصد هو الله، سبحانه وتعالى. والمقدّم عند الله تعالى هو المقرّب. فقد قدّم الملائكة، ثمّ الأنبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ العلماء. وكلّ متأخر فهو مؤخر بالإضافة إلى ما قبله، مقدّم بالإضافة إلى ما بعده. والله، سبحانه وتعالى، هو المقدّم والمؤخر، لأنك إذا أحلت تقدّمهم وتأخرهم على توفيرهم وتقصيرهم وكمالهم في الصفات ونقصهم، فمن الذي حملهم على التوفير بالعلم والعبادة بإثارة دواعيهم؟ ومن الذي حملهم على التقصير بصرف دواعيهم إلى ضدّ الصراط المستقيم؟ وذلك كله من الله تعالى، فهو المقدّم والمؤخر، والمراد هو التقديم والتأخير في الرتبة. وفيه إشارة إلى أنّه لم يتقدّم من تقدّم بعلمه وعمله، بل بتقديم الله، عزّ وجلّ، إياه. وكذلك المتأخر. وقد صرح بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء / الآية: ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًاءًا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [سورة السجدة / الآية: ١٣].

تنبيه:

حظّ العبد من صفات الأنعال ظاهر. فلذلك قد لا نشغل بإعادته في كلّ اسم حذراً من التطويل، إذ فيما ذكرناه تعريف لطريق الكلام.

الأول والآخر

اعلم أنّ الأوّل يكون أولاً بالإضافة إلى شيء، والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان. فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد، من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد، أولاً وآخر جميعاً، بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود لاحظت سلسلة الموجودات المترتبة، فالله تعالى بالإضافة إليها أوّل، إذ الموجودان كلّها استفادت الوجود منه، وأمّا هو فموجود بذاته، وما استفاد الوجود من غيره. ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك لاحظت مراتب منازل السائرين إليه، فهو آخر، إذ هو آخر ما يرتقي إليه درجات العارفين. وكلّ معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته. والمنزل الأقصى هو معرفة الله، سبحانه وتعالى. فهو آخر بالإضافة إلى السلوك، أوّل بالإضافة إلى الوجود. فمنه المبدأ أولاً، وإليه المرجع والمصير آخراً.

الظاهر والباطن

هذا الوصفان أيضاً من المضافات. فإنّ الظاهر يكون ظاهراً لشيء وباطناً لشيء. ولا يكون من وجه واحد ظاهراً وباطناً، بل يكون ظاهراً من وجه بالإضافة إلى إدراك، وباطناً من وجه آخر. فإنّ الظهور والبطون إنّما يكون بالإضافة إلى الإدراكات. والله، سبحانه وتعالى، باطن إن طلب من إدراك الحواسّ وخزانة الخيال، ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال. فإن قلت: أمّا كونه باطناً بالإضافة إلى إدراك الحواسّ فظاهر، وأمّا كونه ظاهراً للعقل فغامض، إذ الظاهر ما لا يُتَمَارَى فيه ولا يختلف الناس في إدراكه، وهذا ممّا قد وقع فيه الريب الكثير للخلق،

فكيف يكون ظاهراً؟ فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره. فظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حدة انعكس على ضده. ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستعده، ولا تفهمه إلا بمثال.

فأقول: لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب، لاستدلك بها على كون الكاتب عالماً، قادراً، سمياً، بصيراً، واستفدت منه اليقين بوجود هذه الصفات، بل لو رأيت كلمة مكتوبة، لحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها، عالم، قادر، سميع، بصير، حي، ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة. وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فما من ذرة في السموات والأرض، من فلك وكوكب وشمس وقمر وحيوان ونبات وصفة وموصوف، إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبر دبرها وقدرها وخصصها بخصوص صفاتها. بل لا ينظر الإنسان إلى عضو من أعضائه نفسه وجزء من أجزائه ظاهراً وباطناً، بل إلى صفة من صفاته وحالة من حالاته التي تجري عليه قهراً بغير اختياره، إلا ويراه ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها. وكذلك كل ما يدركه بجميع حواسه، في ذاته وخارجاً من ذاته.

ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة، يشهد بعضها ولا يشهد بعضها، لكان اليقين حاصلًا للجميع. ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور. ومثاله أن أظهر الأشياء ما يدرك بالحواس، وأظهرها ما يدرك بحاسة البصر، وأظهر ما يدرك بحاسة البصر نور الشمس المشرق على الأجسام، الذي به يظهر كل شيء. فما به يظهر كل شيء كيف لا يكون ظاهراً وقد أشكل ذلك على خلق كثير حتى قالوا: الأشياء الملونة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد وحمرة، فأنما أن يكون فيها مع اللون ضوء ونور مقارن للون، فلا. وهؤلاء إنما تنبهوا على قيام النور بالملونات بالفرقة التي يدركونها بين الظل وموضع النور، وبين الليل والنهار. فإن الشمس لما تصوّر غيبتها بالليل واحتجابها بالأجسام المظلمة بالنهار، انقطع أثرها عن الملونات، فأدركت الفرقة بين المتأثر

المستضيء بها، وبين المظلم المحجوب عنها، فعرف وجود النور بعدم النور إذا أضيف حالة العدم إلى حالة الوجود، فأدركت الفرقة مع بقاء الألوان في الحالتين. ولو أطبق نور الشمس كل الأجسام الظاهرة لشخص، ولم تغب الشمس حتى يدرك الفرقة، لتعذر عليه معرفة كون النور شيئاً موجوداً زائداً على الألوان، مع أنه أظهر الأشياء، بل هو الذي به يظهر جميع الأشياء.

ولو تصوّر الله تعالى وتقدس، عدم أو غيبة عن بعض الأمور، لانهدت السموات والأرض وكل ما انقطع نوره عنه، ولأدركت الفرقة بين الحالتين، وعلم وجوده قطعاً. ولكن لما كانت الأشياء كلها متفقة في الشهادة، والأحوال كلها مطردة على نسق واحد، كان ذلك سبباً لحفائه، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدة ظهوره. فهو الظاهر الذي لا أظهر منه، وهو الباطن الذي لا أبطن منه.

تنبيه:

لا تتعجب من هذا في صفات الله تعالى وتقدس، فإن المعنى الذي به الإنسان إنسان ظاهراً باطن. فإنه ظاهر إن استدل عليه بأفعاله المرتبة المحكمة، باطن إن طلب من إدراك الحس. فإن الحس إنما يتعلق بظاهر بشرته، وليس الإنسان إنساناً بالبشرة المرئية منه. بل لو تبدلت تلك البشرة، بل سائر أجزائه، فهو هو، والأجزاء متبدلة. ولعل أجزاء كل إنسان بعد كبره غير الأجزاء التي كانت فيه عند صغره. فإنها تحللت بطول الزمان، وتبدلت بأمثالها بطريق الاعتداء، وهويته لم تبدل. فتلك الهوية باطنة عن الحواس، ظاهرة للعقل بطريق الاستدلال عليها بآثارها وأفعالها.

البر

هو المحسن. والبر المطلق هو الذي منه كل مبرّة وإحسان. والعبد إنما يكون برّاً بقدر ما يتعاطاه من البر، ولا سيما بالديه وأستاذه وشيوخه.

رُوي أنَّ موسى، عليه السلام، لما كلمه ربه رأى رجلاً قائماً عند ساق العرش، فتعجب من علو مكانه، فقال: «يا رب، بم بلغ هذا العبد هذا المحل؟» فقال: «إنه كان لا يحسد عبداً من عبادي على ما آتته، وكان باراً بوالديه». هذا برّ العبد. فأما تفصيل برّ الله تعالى وإحسانه إلى خلقه، فيطول شرحه؛ وفي بعض ما ذكرناه ما ينبّه عليه.

التواب

هو الذي يرجع إلى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى، بما يُظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب، استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة، فرجع إليهم فصل الله تعالى بالقبول.

تنبيه:

من قبل معاذير المجرمين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرة بعد أخرى، فقد تخلّق بهذا الخلق وأخذ منه نصيباً.

المنتقم

هو الذي يقصم ظهور المعنة، ويُكَلِّل بالجنّة، ويشدّد العقاب على الطغاة، وذلك بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكن والإمهال، وهو أشدّ للانتقام من المعاملة بالعقوبة. فإنه إذا عوجل بالعقوبة، لم يعن في المعصية، فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة.

تنبيه:

المحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله تعالى. وأعدى الأعداء نفسه. وحقّه أن ينتقم منها مهما قارفت معصية أو أخلّت بعبادة. كما نقل عن أبي

يزيد^(١)، رحمه الله، أنه قال: «تكاسلت نفسي عليّ في بعض الليالي عن بعض الأوراد، فعاقبتها بأن منعتها الماء سنة». فهكذا ينبغي أن يسلك سبيل الانتقام.

العفو

هو الذي يحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور ولكنه أبلغ منه. فإنّ الغفران ينبئ عن السرّ، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من السرّ.

تنبيه:

وحظّ العبد من ذلك لا يخفى، وهو أن يعفو عن كلّ من ظلمه، بل يحسن إليه كما يرى الله تعالى محسناً في الدنيا إلى العصاة والكفرة، غير معاجل لهم بالعقوبة. بل ربّما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم. وإذا تاب عليهم محاسناتهم، إذ التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وهذا غاية المحو للحناية.

الرزوف

ذو الرأفة، والرأفة شدة الرحمة. فهو بمعنى الرحيم، مع المبالغة فيه. وقد سبق الكلام عليه.

مالك الملك

هو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء وكما شاء، إيجاباً وإعداماً وإبقاءً وإفناءً. والمُلكُ هنا بمعنى المملكة، والمالك بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلّها مملكة واحدة، وهو مالكها وقادرها. وإنّما كانت الموجودات كلّها مملكة واحدة لأنها مرتبطة بعضها ببعض، فإنّها وإن كانت كثيرة من وجه، فلها وحدة من وجه. ومثاله بدن الإنسان، فإنه مملكة لحقيقة الإنسان، وهي أعضاء

(١) أبو يزيد البسطامي: طهوف بن عيسى البسطامي، أحد الزهاد مروى عنه أنه قال: لو نظرت إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير، فلا تقفوا به حتى تتروا كيف هو عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود والشرع. توفي سنة (٢٦١هـ).

كثيرة مختلفة، ولكنها كالتعاونة على تحقيق غرض مدبر واحد، فكانت مملكة واحدة. فكذلك العالم كله كشخص واحد، وأجزاء العالم كأعضائه، وهي متعاونة على مقصود واحد، وهو إتمام غاية الخير الممكن وجوده، على ما اقتضاه الجود الإلهي. ولأجل انتظامها على ترتيب متسق، وارتباطها برابطة واحدة، كانت مملكة واحدة. والله تعالى مالکها فقط.

ومملكة كل عبد بدنه خاصة. فإذا نفذت مشيئته في صفات قلبه وجوارحه، فهو مالک مملكة نفسه بقدر ما أعطي من القدرة عليها.

ذو الجلال والإكرام

هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه. فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه. وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى، وعليه دلّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء / الآية: ٧٠].

الوالي

هو الذي دبر أمور الخلق ووليها، أي تولّاها وكان ملياً بولايتها. وكان الولاية تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع جميع ذلك فيه لم ينطلق اسم الوالي عليه. ولا والي للأمور إلا الله، سبحانه وتعالى، فإنه المتفرد بتدبيرها أولاً، والمنفذ للتدبير بالتحقيق ثانياً، والقائم عليها بالإدامة والإبقاء ثالثاً.

المتعالي

بمعنى العليّ، مع نوع من المبالغة. وقد سبق معناه.

المقسط

هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم. وكماله في أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم، وذلك غاية العدل والإنصاف، ولا يقدر عليه إلا الله، سبحانه وتعالى.

ومثاله ما روي عن النبي ﷺ أنه بينما هو جالس، إذ ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر، رضي الله عنه، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أضحكك؟ قال: «رجلان من أمّتي جثيا بين يدي ربّ العزّة، فقال أحدهما: يا ربّ، خذْ لي مظلّمي من هذا. فقال الله، عزّ وجلّ: ردّْ على أخيك مظلّمته. فقال: يا ربّ لم يبق لي من حسناتي شيء. فقال، عزّ وجلّ، للطالب: كيف تصنع بأخيك، لم يبق من حسناته شيء؟ فقال: يا ربّ، فليحمل عني من أوزاري». ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «إنّ ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم». قال: «فيقول الله، عزّ وجلّ، للمتظلم: ارفع بصرك فانظر في الجنان. فقال: يا ربّ، أرى مدائن من فضّة، وقصوراً من ذهب مكلّنة باللؤلؤ، لأيّ نبيّ هذا أو لأيّ صديق أو لأيّ شهيد؟ قال الله، عزّ وجلّ: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا ربّ، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: بماذا يا ربّ؟ قال: بعفوك عن أخيك. قال: يا ربّ، قد عفوت عنه. قال الله، عزّ وجلّ: خذ بيد أخيك، فأذخله الجنة». ثم قال ﷺ: «اتقوا الله، واصلحوا ذات بينكم، فإن الله، تبارك وتعالى، يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(١).

فهذا سبيل الانتصاف والإنصاف، ولا يقدر على مثله إلا ربّ الأرباب. وأوفر العباد حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ثم لغيره من غيره، ولا ينتصف لنفسه من غيره.

الجامع

هو المؤلف بين التماثلات والمتباينات والمتضادات.

أما جمع الله التماثلات، فكجمعه الخلق الكثير من الإنس على ظهر الأرض، وكحشره إليهم في صعيد القيامة.

(١) لم أحده.

وأما المتباينات، فكجمعه بين السموات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والنبات والمعادن المختلفة، كل ذلك متباين الأشكال والألوان والطعوم والأوصاف، وقد جمعها في الأرض وجمع بين الكل في العالم. وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن الحيوان.

وأما المتضادات، فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات، وهي متافرات متعادات. وذلك أبلغ وجوه الجمع. وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة، وكل ذلك مما يطول شرحه.

تنبيه:

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب، فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع. وذلك قيل: الكامل من لا يطفى نور معرفته نور ورعه. وكان الجمع بين الصبر والبصيرة متعذراً، لذلك ترى صبوراً على الزهد والورع لا بصيرة له، وترى ذا بصيرة لا صبر له، والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة. والسلام.

الغنى المغنى

الغنى هو الذي لا تعلق له بغيره، لا في ذاته ولا في صفات ذاته، بل يكون منزهاً عن العلاقة مع الأغيار. فمن تعلق ذاته أو صفات ذاته بامر خارج من ذاته يتوقف عليه وجوده أو كماله، فهو فقير محتاج إلى الكسب. ولا يتصور ذلك إلا لله، سبحانه وتعالى.

والله عز وجل، هو المغنى أيضاً. ولكن الذي أغناه لا يتصور أن يصير بإغنائه غنياً مطلقاً، فإن أقل أموره أنه محتاج إلى المغنى، فلا يكون غنياً، بل يستغنى

عن غير الله بأن يمدّه بما يحتاج إليه، لا بأن يقطع عنه أصل الحاجة. والغنى الحقيقي هو الذي لا حاجة له إلى أحد أصلاً، والذي يحتاج ومعه ما يحتاج، فهو غنى بالمجاز. وهو غاية ما يدخل في الإمكان في حق غير الله، سبحانه وتعالى.

وأما فقد الحاجة، فلا. ولكن إذا لم يبق حاجة إلا إلى الله تعالى سمي غنياً. ولو لم يبق له أصل الحاجة لما صح قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد / الآية: ٣٨]. ولولا أنه يتصور أن يستغنى عن كل شيء سوى الله، عز وجل، لما صح لله تعالى وصف المغنى.

المانع

هو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخلقه من الأسباب المعلقة للحفظ. وقد سبق معنى الحفيظ. وكل حفظ فمن ضرورته منع ودفع، فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع. والمنع إضافة إلى السبب المهلك. والحفظ إضافة إلى المحروس عن الهلاك، وهو مقصود المنع وغايته، إذ المنع يراد للحفظ، والحفظ لا يراد للمنع. فكل حافظ مانع، وليس كل مانع حافظاً، إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع أسباب الهلاك والنقص، حتى يحصل الحفظ من ضرورته.

الضار النافع

هو الذي يصدر منه الخير والشر والنفع والضرر. وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى، إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسطة. فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه، وأن الملك والإنسان والشيطان، أو شيئاً من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما، يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضرر بنفسه. بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر منها إلا ما سخرت له.

وجملة ذلك بالإضافة إلى القدرة الأزلية، كالقلم بالإضافة إلى الكاتب في اعتقاد العامي. وكما أن السلطان إذا وقع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا

نفعه من القلم، بل من الذي القلم مسخر له، فكذلك سائر الوسائط والأسباب وإنما قلنا في اعتقاد العامي لأن الجاهل يرى القلم مسخراً للكاتب، والعارف يعلم أنه مسخر في يده لله، سبحانه وتعالى، وهو الذي الكاتب مسخر له. فإنه مهما خلق الكاتب وخلق له القدرة وسلط القدرة وسلط عليه الداعية الجازمة التي لا ترد فيهما، صدر منه حركة الأصابع والقلم، لا محالة، شاء أم أبى، بل لا يمكنه أن لا يشاء. فإذا، الكاتب بقلم الإنسان ويده هو الله تعالى. وإذا عرفت هذا في الحيوان المختار، فهو في الجماد أظهر.

النور

هو الظاهر الذي به كلّ ظهور، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً. ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور، لا محالة، للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم. فالبريء عن ظلمة العدم، بل عن إمكان العدم المخرج كلّ الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، جدير بأن يسمى نوراً. والوجود نور فائض على الأشياء كلّها من نور ذاته، فهو نور السموات والأرض. وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة، فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهي، بجواز وجودها، دالة على وجوب وجود موجدتها. وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة في معناه.

المهدي

هو الذي هدى خواص عباده أولاً إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على الأشياء، وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته، وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في قضاء حاجاته. فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله، والفرخ إلى التقاط الحبّ وقت خروجه، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس، لكونه أوفق الأشكال لبدنه، وأحوالها وأبعدها عن أن يتخللها فرج

ضائعة. وشرح ذلك يطول، وعنه عبّر قوله تعالى: [الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] [سورة طه / الآية: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [سورة الأعلى / الآية: ٣].

والهداية من العباد الأنبياء والعلماء، الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية، وهدوهم إلى صراط الله المستقيم. بل الله الهادي لهم على ألفتهم، وهم مسخرون تحت قدرته وتديره.

البديع

هو الذي لا عهد بمثله. فإن لم يكن بمثله عهد، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في كلّ أمر راجع إليه، فهو البديع المطلق. وإن كان شيء من ذلك معهوداً، فليس ببديع مطلق. ولا يليق هذا الاسم مطلقاً إلا بالله، سبحانه وتعالى، فإنه ليس له قبل فيكون مثله معهوداً قبله. وكلّ موجود بعده فحاصل بإيجاده، وهو غير مناسب لموجده. فهو بديع أزلاً وأبداً.

وكلّ عبد اختص بخاصية في النبوة أو الولاية أو العلم، لم يعهد مثله، إنما في سائر الأوقات وإنما في عصره، فهو بديع بالإضافة إلى ما هو منفرد به، وفي الوقت الذي هو منفرد فيه.

الباقى

هو الموجود، الواجب وجوده بذاته، ولكنّه إذا أضيف في الذهن إلى الاستقبال سُمّي باقياً، وإذا أضيف إلى الماضي سُمّي قديماً. والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، ويعبّر عنه بأنه أبديّ. والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إلى أول، ويعبّر عنه بأنه أزليّ. وقولك: واجب الوجود بذاته، متضمّن لجميع ذلك. وإنما هذه الأسماء بحسب إضافة هذا الوجود في الذهن إلى الماضي والمستقبل.

وإنما يدخل في الماضي والمستقبل للتفسيرات، لأنهما عبارتان عن الزمان. ولا يدخل في الزمان إلا التغير والحركة، إذ الحركة إنما تنقسم إلى ماضٍ ومستقبل، والتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير، فما جلّ عن التغير والحركة فليس في زمان، فليس فيه ماضٍ ومستقبل، فلا يتفصل فيه القدم عن البقاء. بل الماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذ مضى علينا وفيما أمور، وستحدث أمور. ولا بدّ من أمور تحدث شيئاً بعد شيء، حتى تنقسم إلى ماضٍ قد انعدم وانقطع، وإلى رهن حاضر، وإلى ما يتوقع تجلّده من بعد. فحيث لا تجلّد ولا انقضاء فلا زمان.

وكيف لا والحق، سبحانه وتعالى قبل الزمان، وحيث خلق الزمان لم يتغير من ذاته شيء. وقبل خلق الزمان لم يكن للزمان عليه جريان، وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان. ولقد أبعّد من قال: البقاء صفة زائدة على ذات الباقي. وأبعّد منه من قال: القدم وصف زائد على ذات القديم. وناهيك برهناً على فساده ما لزمه من الخبط في بقاء البقاء، وبقاء الصفات، وقدم القدم، وقدم الصفات.

الوارث

هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك. وذلك هو الله، سبحانه وتعالى، إذ هو الباقي بعد فناء الخلق، وإليه مرجع كلّ شيء ومصيره. وهو القائل إذ ذاك: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [سورة غافر / الآية: ١٦]. وهو المجيب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر / الآية: ١٦]. وهذا بحسب ظنّ الأكثرين، إذ يظنون لأنفسهم ملكاً وملكاً، فينكشف لهم ذلك اليوم حقيقة الحال. وهذا النداء عبارة عن حقيقة ما ينكشف لهم في ذلك الوقت. فأما أبواب البصائر فإنهم أبداً مشاهدون لمعنى هذا النداء، سامعون له من غير صوت ولا حرف، موقنون بأنّ الملك لله، الواحد القهار، في كلّ يوم وفي كلّ ساعة وفي كلّ لحظة، وكذلك كان أزلاً وأبداً. وهذا إنما يدركه من أدرك حقيقة التوحيد في الفعل، وعلم أنّ المنفرد بالفعل في الملك والمكوت

واحد. وقد أشرنا إلى ذلك في أوّل كتاب التوكّل من كتاب (إحياء علوم الدين)، فليطلب منه، فإنّ هذا الكتاب لا يحتمله.

الرشيد

هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سنن السداد من غير إشارة مشير وتسدّد مسدّد وإرشاد مرشد. وهو الله، سبحانه وتعالى. ورُشد كلّ عبد بقدر هدايته في تدبيره إلى ما يشاكل الصواب من مقاصده ودينه ودينه.

الصبور

هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود، لا يؤخرها عن آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل، ولا يقدّمها على أوقاتها تقديم مستعجل، لا يودع كلّ شيء في أوانه، على الوجه الذي يجب أن يكون، وكما ينبغي، وكلّ ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

وأما صبر العبد، فلا يخلو عن مقاساة لأنّ معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب. فإذا تجاوز داعيان متضادّان، فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة، ومال إلى باعث التأخير سُمّي صبوراً، إذ جعل باعث العجلة مقهوراً. وباعث العجلة في حقّ الله، سبحانه، معدوم. فهو أبعّد عن العجلة ممّن باعته موجود، ولكنّه مقهور، فهو أحقّ بهذا الاسم، بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث، ومصابرتها بطريق المجاهدة.

خاتمة لهذا الفصل واعتذار

اعلم أنه إنما حملني على ذكر هذه التنبيهات ردّف هذه الأسماء والصفات قول رسول الله ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق الله تعالى»^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله كذا وكذا خلّقاً من تخلّق بواحد منها دخل الجنة»^(٢)، وما تداولته ألسنة الصوفيّة من كلمات تشير إلى ما ذكرناه، لكن على وجه يوهّم عند غير المحصل شيئاً من معنى الحلول والاتحاد. وذلك غير مظنون بعقل، فضلاً عن المتميّزين بخصائص المكاشفات. ولقد سمعت الشيخ أبا علي الفارمّذي يحكي عن شيخه أبي القاسم الكرّكاني، قدّس الله روحهما، أنه قال: «إنّ الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك، وهو بعد في السلوك غير واصل». وهذا الذي ذكره، إن أراد به شيئاً يناسب ما أوردناه، فهو صحيح، ولا يظنّ به إلّا ذلك. ويكون في اللفظ نوع من التوسّع والاستعارة. فإنّ معاني الأسماء هي صفات الله تعالى، وصفاته لا تصير صفةً لغيره. ولكن معناه أنّه يحصل له ما يناسب تلك الأوصاف، كما يقال: فلان حصل علم أستاذه. وعلم الأستاذ لا يحصل للتلميذ بل يحصل له مثل علمه.

وإن ظنّ ظانّ أنّ المراد به ليس ما ذكرناه، فهو باطل قطعاً. فإني أقول: قول القائل إنّ معاني أسماء الله، سبحانه وتعالى، صارت أوصافاً له، لا يخلو إمّا أن يعني به عين تلك الصفات، أو مثلها. فإن عني به مثلها، فلا يخلو إمّا عني به مثلها مطلقاً من كلّ وجه، وإمّا أنه عني به مثلها من حيث الاسم والمشاركة في عموم الصفات

(١) لم أحده.

(٢) قال العراقي في تحريجه (الإحياء) رواه الطبراني في (الأوسط).

دون خواصّ المعاني. فهذان قسمان. وإن عني به عينها، فلا يخلو إمّا أن يكون بطريق انتقال الصفات من الربّ إلى العبد، أو لا انتقال. فإن لم يكن بالانتقال، فلا يخلو إمّا أن يكون باتّحاد ذات العبد بذات الربّ، حتّى يكون هو هو فتكون صفاته صفاته، وإمّا أن يكون بطريق الحلول. وهذه أقسام ثلاثة: وهو الانتقال والاتحاد والحلول. وقسمان مقدمان.

فهذه خمسة أقسام، الصحيح منها قسم واحد، وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم، ولكن لا تماثلها ماثلة تامة، كما ذكرناه في التنبيهات.

وأما القسم الثاني: وهو أن يثبت له أمثالها على التحقيق، فمحال. فإنّ من جملة أن يكون له علم محيط بجميع المعلومات، حتّى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات، حتّى يكون هو بها خالق الأرض والسموات وما بينهما. وكيف يتصوّر هذا لغير الله تعالى؟ وكيف يكون العبد خالق السموات والأرض وما بينهما، وهو من جملة ما بينهما، فكيف يكون خالق نفسه؟ ثمّ إن ثبتت هذه الصفات لعبدٍ يكون كلّ واحد منهما خالق صاحبه، فيكون كلّ واحد خالقاً من خلقه. وكلّ ذلك ترهات ومحالات.

وأما القسم الثالث: وهو انتقال عين صفات الربوبية، فهو أيضاً محال، لأنّ الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات، وهذا لا يختصّ بالذات القدسية، بل لا يتصوّر أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو، بل لا قيام للصفات إلّا بخصوص الموصوفات؛ ولأنّ الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه، فيوجب أن تعرى الذات التي عنها انتقال الصفات الربوبية، فتعري عن الربوبية وصفاتها، وذلك أيضاً ظاهر الاستحالة.

وأما القسم الرابع، وهو الاتحاد، فذلك أيضاً أظهر بطلاناً، لأنّ قول القائل: إنّ العبد صار هو الربّ كلام متناقض في نفسه، بل ينبغي أن ينزه الربّ، سبحانه وتعالى، عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات. ونقول قولاً مطلقاً: إنّ

قول القائل: إنَّ شيئاً صار شيئاً آخر، محال على الإطلاق. لأننا نقول: إذا عُقِل زيد وحده وعمره وحده، ثم قيل: إنَّ زيدا صار عمرواً واتحد به، فلا يخلو عند الاتحاد إمّا أن يكون كلاهما موجودين، أو كلاهما معدومين، أو زيد موجوداً وعمره معدوماً، أو بالعكس. ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة.

فإن كانا موجودين، فلم يصر عين أحدهما عين الآخر، بل عين كلّ واحد منهما موجود. وإنما الغاية أن يتحد مكانهما، وذلك لا يوجب الاتحاد. فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تباين محالها، ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة، ولا يكون قد اتحد البعض ببعض.

وإن كان معدومين، فما اتحدا، بل عدما، ولعلّ الحادث شيء ثالث.

وإن كان أحدهما معدوماً والآخر موجوداً، فلا اتحاد، إذ لا يتحد موجود بمعدوم.

فالاتحاد بين شيئين مطلقاً محال، وهذا جارٍ في الذوات المتماثلة، فضلاً عن المختلفة. فإنه يستحيل أن يصير هذا السواد ذاك السواد، كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم. والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والبياض، والجهل والعلم.

فأصل الاتحاد إذاً باطل، وحيث يطلق الاتحاد ويقال: هو هو، لا يكون إلا بطريق التوسّع والتجوّز اللائق بعبادة الصوفية والشعراء. فإنهم، لأجل تحسين موقع الكام من الإفهام، يسلكون سبيل الاستعارة، كما يقول الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا

وذلك مؤوّل عند الشاعر، فإنه لا يعني به أنه هو تحقيقاً، بل كأنه هو. فإنه مستغرق الهمّ به كما يكون هو مستغرق الهمّ بنفسه، فيعبّر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوّز.

وعليه ينبغي أن يحمل قول أبي يزيد، رحمه الله، حيث قال: «انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، فنظرت فإذا أنا هو». ويكون معناه أنّ من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمتها فلا يبقى فيه متسع لغير الله، ولا يكون له همّة سوى الله، سبحانه وتعالى. وإذا لم يحلّ في القلب إلاّ جلال الله وجماله، حتّى صار مستغرقاً به، يصير كأنه هو، لا أنه هو تحقيقاً. وفرق بين قولنا: كأنه هو، وبين قولنا هو هو لكن قد يعبر بقولنا هو هو عين قولنا: كأنه هو، كما أن الشاعر تارة يقول: كاني من أهوى، وتارة يقول: أنا من أهوى. وهذه مرّة قدم. فإنّ من ليس له قدم راسخ في المعقولات، ربّما لم يتميّز له أحدهما عن الآخر، فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تألّف فيه من حلية الحقّ، فيظنّ أنه هو، فيقول: أنا الحقّ.

وهو غالط غلط النصارى، حيث رأوا ذلك في ذات المسيح، عيسى، عليه السلام، فقالوا: هو الإله، بل هو غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع فيها صورة متلوّنة بتلوّنه، فيظنّ أنّ تلك الصورة هي صورة المرأة، وأنّ ذلك اللون لون المرأة. وهيهات! بل المرأة في ذاتها لا لون لها، وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أنّ ذلك صورة المرأة، حتّى إنّ الصبي إذا رأى إنساناً في المرأة ظنّ أنّ الإنسان في المرأة. فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات، وإنما هيأته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق. فما يحلّه يكون كالمتحد به، لا أنه متحد به تحقيقاً. ومن لا يعرف الزجاج والخمر، إذا رأى زجاجة فيها خمر لا يدرك تباينهما، فتارة يقول: لا خمر، وتارة يقول: لا زجاجة. كما عبّر عنه الشاعر، حيث قال:

رقّ الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وقول من قال منهم: «أنا الحقّ»، فإنّما أن يكون معناه معنى قول الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وإما أن يكون قد غلط في ذلك كما غلط النصارى في ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت.

وقول أبي يزيد، رحمه الله، إن صح عنه: «سبحاني ما أعظم شأنى!» إما أن يكون ذلك جارياً على لسانه، في معرض الحكاية عن الله، عز وجل، كما لو سمع وهو يقول: «لا إله إلا أن فاعبدني»، لكان يحمل على الحكاية، وإما أن يكون قد شاهد كمال حفظه من صفة القدس، على ما ذكرنا في الترقى بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات، وبالهمة عن الحظوظ والشهوات، فأحير عن قدس نفسه، وقال: «سبحاني!» ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق، فقال: «ما أعظم شأنى!» وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق، ولا نسبة له إلى قدس الرب، تعالى وتقدس، وعظم شأنه. ويكون قد جرى هذا اللفظ في سكره وغلبات حاله. فإن الرجوع إلى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الألفاظ الموهمة، وحال السكر ربما لا يحتمل ذلك. فإن جاوزت هذين التأويلين إلى الاتحاد، فذلك محال قطعاً. فلا ينظر إلى مناصب الرجال حتى يصدق بالمحال، بل ينبغي أن يعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال.

وأما القسم الخامس، وهو الحلول، فذلك يتصور أن يقال: إن الرب، تبارك وتعالى، حل في العبد، أو العبد حل في الرب. تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين. وهذا، لو صح، لما أوجب الاتحاد، ولا أن يتصف العبد بصفات الرب، فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل، بل تبقى صفة للحال كما كان. ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول، فإن المعاني المفردة، إذا لم تترك بطريق التصور لم يمكن أن يفهم نفيها أو إثباتها. فمن لا يدري معنى الحلول فمن أين يدري أن الحلول موجود أو محال؟

فنقول: المفهوم من الحلول أمران:

أحدهما: النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه، وذلك لا يكون إلا بين جسمين. فالبريء عن معنى الجسمية يستحيل في حقه ذلك.

والثاني: النسبة التي بين العرض والجوهر. فإن العرض يكون قوامه بالجوهر، فقد يعبر عنه بأنه حال فيه، وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه. فدع عنك ذكر الرب، تعالى وتقدس، في هذا المعرض، فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه، إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام. فلا يتصور الحلول بين عبيد، فكيف يتصور بين العبد والرب؟

وإذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بامثال صفات الله، سبحانه وتعالى، على سبيل الحقيقة، لم يبق لقولهم معنى إلا ما أشرنا إليه في التشبيهات. وذلك يمنع من إطلاق القول بأن معاني أسماء الله تعالى تصير أوصافاً للعبد، إلا على نوع من التقييد خالٍ عن الإبهام، وإلا فمطلق هذا اللفظ موهوم.

فإن قلت: فما معنى قول إن العبد، مع الاتصاف بجميع ذلك، سالك لا واصل، فما معنى السلوك، وما معنى الوصول على رأي هذا القائل؟ فاعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف، وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن. والعبد في جميع ذلك مشغول بنفسه عن ربه، سبحانه وتعالى، إلا أنه مشغول بتصفية باطنه، ليستعد للوصول. وإما الوصول، هو أن ينكشف له حلية الحق ويصير مستغرقاً به، فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله، وإن نظر إلى همته فلا همّة له سواه. فيكون كله مشغولاً بكله، مشاهدة وهمّاً، لا يلتفت في ذلك إلى نفسه، إلا ليعبر بظاهره بالعبادة، أو باطنه بتهذيب الأخلاق. وكل ذلك طهارة، وهي البداية. وإما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية، ويتجرد له، فيكون كأنه هو، وذلك هو الوصول عنده.

فإن قلت: كلمات الصوفية بناء على مشاهدات انفتحت لهم في طور الولاية، والعقل يقصر عن درك ذلك، وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقل، فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته. نعم، يجوز أن يظهر ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنه لا يدركه ذلك ببضاعة العقل، بل يقصر

العقل عنه، ولا يجوز أن يكشف بأن الله، سبحانه وتعالى، غداً سيخلق مثل نفسه، فإن ذلك يحلله العقل، لا أنه يقصر عنه. وأبعد من ذلك أن يقول: إن الله، تبارك وتعالى، سيجعلني مثل نفسه. وأبعد منه أن يقول: إن الله عز وجل سيصيرني نفسه، أي أصير أنا هو، لأن معناه أنني حادث والله، وتعالى وتقدس، يجعلني قديماً، ولست خالق السموات والأرضين، والله يجعلني خالق السموات والأرضين. وهذا معنى قوله: «نظرت فإذا أنا هو»، إذا لم يؤول. ومن صدق بمثل هذا، فقد انحلع عن غريزة العقل، ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم، فليصدق بأنه يجوز أن يكشف ولياً بأن الشريعة باطلة، وأنها إن كانت حقاً، فقد قلبها الله باطلاً، وأنه جعل أقاويل الأنبياء كذباً. وإن من قال: يستحيل أن ينقلب الصدق كذباً، فإنما يقوله ببضاعة العقل. فإن انقلاب الصدق كذباً ليس بأبعد من انقلاب الحادث قديماً، والعبد رباً. ومن لم يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يتاله العقل، فهو أحسن من أن يخاطب، فليترك وجهه.

الفصل الثاني من المقاصد والغايات

في بيان وجه رجوع هذه الأسماء الكثيرة إلى ذات وسبع صفات،

على مذاهب أهل السنة

لعلك تقول: هذه أسماء كثيرة، وقد منعت الترداف فيها وأوجبت أن يتضمن كل واحد معنى آخر، فكيف يرجع جميعها إلى سبع صفات؟ فاعلم أن الصفات إن كانت سبعا فالأفعال كثيرة والإضافات كثيرة والسلوب كثيرة، ويكاد يخرج جميع ذلك عن الحصر. ثم يمكن التركيب من مجموع صفتين، أو صفة وإضافة، أو صفة وسلب، أو سلب وإضافة، ويوضع بإزائه اسم، فتكثر الأسماء بذلك. وكان مجموعها يرجع إلى ما يدل منها على الذات، أو على الذات مع سلب، أو على الذات مع إضافة، أو على الذات مع سلب وإضافة، أو على واحد من الصفات السبع، أو على صفة وسلب، أو على صفة وإضافة، أو على صفة فعل، أو على صفة فعل وإضافة أو سلب. فهذه عشرة أقسام.

الأول: ما يدل على الذات، كقولك: الله. ويقرب منه اسم الحق إذا أريد

به الذات من حيث هي واجبة الوجود.

الثاني: ما يدل على الذات مع سلب، مثل القنوس والسلام والغني والأحد، ونظائره. فإن القنوس هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل في الوهم، والسلام هو المسلوب عنه العيوب، والغني هو المسلوب عنه الحاجة، والأحد هو المسلوب عنه النظير والقسم.

الثالث: ما يرجع إلى الذات مع إضافة، كالعليّ والعظيم والأول والآخِر والظاهر والباطن، ونظائره. فإنّ العليّ هو الذات التي هي فوق سائر الذوات في المرتبة، فهي إضافة. والعظيم يدل على الذات من حيث تجاوز حدود الإدراكات.

والأول هو السابق على الموجودات، والآخر هو الذي إليه مصير الموجودات. والظاهر هو الذات بالإضافة إلى دلالة العقل، والباطن هو الذات مضافة إلى إدراك الحسّ والوهم. وقس على هذا غيره.

الرابع: ما يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة، كالملك والعزيز. فإنّ الملك يدلّ على ذات لا تحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كلّ شيء. والعزيز هو الذي لا نظير له، وهو مما يصعب نبهه والوصول إليه.

الخامس: ما يرجع إلى صفة، كالعليم والقادر والحيّ والسميع والبصير. السادس: ما يرجع إلى العلم مع إضافة، كالخبير والشهيد والحكيم والمحصي. فإنّ الخبير يدلّ على العلم مضافاً إلى الأمور الباطنة. والشهيد يدلّ على العلم مضافاً إلى أشرف المعلومات. والمحصي يدلّ على العلم من حيث يحيط بمعلومات محصورة، معدودة التفصيل.

السابع: ما يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة، كالقهار والقويّ والمقتدر والمتين. فإنّ القوة هي تمام القدرة، والمتانة شدّتها، والقهر تأثيرها في المقدور بالغبلة.

الثامن: ما يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل، كالرحمن والرحيم والرؤوف والودود. فإنّ الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف. والرأفة شدة الرحمة، وهي مبالغة في الرحمة، والودّ يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان والإنعام. وفعل الرحيم يستدعي محتاجاً، وفعل الودود لا يستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف. وقد عرفت وجه ذلك فيما تقدم.

التاسع: ما يرجع إلى صفات الفعل، كالخالق والبارئ والمصورّ والوهاب والرزّاق والفتّاح والقابض والباسط والخافض والرافع والمُعزّز والمذلّ والعدل والمغيث والمجيب والواسع والباعث والمبدئ والمعيد والمحيي والمميت والمقتدّم والمؤخّر والوالي والبرّ والتوّاب والمتنقم والمقسط والجامع والمناع والمغني والهادي، ونظائره.

العاشر: ما يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة، كالمجيد والكريم واللطيف. فإنّ المجيد يدلّ على سعة الإكرام مع شرف الذات. والكريم كذلك. واللطيف يدلّ على الرفق في الفعل.

فلا تخرج هذه الأسماء وغيرها عن مجموع هذه الأقسام العشرة. فقس بما أوردناه ما لم نوردّه، فإنّ ذلك يدلّ على وجه خروج الأسماء عن الترادف، مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة.

الفصل الثالث

في بيان كيفية رجوع ذلك كله إلى ذات واحدة، على مذهب المعتزلة

والفلاسفة

وهذا الفصل، وإن كان لا يليق بهذا الكتاب، ولكن أودعته هذه الكلمات على الإيجاز بحكم الالتماس. فمن شاء أن لا يثبت في الكتاب فليعمل، فإنه غير مهم في هذا الكتاب.

فأقول: هؤلاء، وإن أنكروا الصفات ولم يشتوا إلا ذاتاً واحدة، فلم ينكروا الأفعال ولا كثرة السلوب ولا كثرة الإضافات. فما ردّدناه من الأسامي إلى هذه الأقسام فهم عليها مساعدون.

أما الصفات السبع التي هي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فيرجع جميع ذلك عندهم إلى العلم، ثم العلم يرجع إلى الذات. ويبيانه أن السمع عندهم عبارة عن علمه التام المتعلق بالأصوات. والبصر عبارة عن علمه التام المتعلق بالألوان وسائر المبصرات. والكلام عندهم يرجع إلى فعله، وهو ما يخلقه من الكلام في جسم من الجمادات، عند المعتزلة. ويرجع عند الفلاسفة إلى سماع يخلقه في ذات النبي ﷺ حتى يسمع هو كلاماً منظوماً من غير أن يكون له وجود من خارج، كما يسمعه النائم. ويضاف ذلك إلى الله تعالى على معنى أنه لم يحصل ذلك فيه بفعل الآدميين وأصواتهم. وأما الحياة، فعبارة عندهم عن علمه بذاته، لأن كل ما يشعر بذاته فيقال: إنه حي، وما لا يشعر بذاته لا يسمى حياً.

ولم يبق إلا الإرادة والقدرة. ومعنى إرادته عندهم أنه، تعالى وتقدس، يعلم وجه الخير ونظامه فيوجد كما يعلمه. ويكون علمه بالشيء سبباً لوجود ذلك الشيء. وإذا علم وجه الخير في شيء فيحصل، ولم يكن فيه كراهة، كان راضياً،

والراضي قد يستى مريداً، فكانت الإرادة ترجع إلى العلم مع عدم الكراهة. وأما القدرة، فمعناها لأنه يفعل إذا شاء ولا يفعل إذا شاء. وفعله معلوم، ومشيته ترجع إلى علمه بوجه الخير. ومعناه أن ما علم أن الخير في وجوده فيوجد منه، وما علم أن الخير في أن لا يوجد فلا يوجد منه. ولا يحتاج وجود نظام الخير إلا إلى علمه بوجه الخير، ولا يحتاج ما لا يوجد في أن لا يوجد إلا عدم العلم بكون الخير فيه. فالنظام المعقول هو سبب النظام الموجود، والنظام الموجود تبع النظام المعقول.

وزعموا أن علمنا إنما يحتاج في تحقيق المعلوم إلى القدرة، لأن فعلنا إنما يكون بجراحة، فلا بد أن تكون الجراحة سليمة وموصوفة بالقوة. وأما هو، فلا يفعل بجراحة، فيكفي علمه بوجود المعلوم، فترجع القدرة أيضاً إلى العلم. ثم زعموا أن العلم أيضاً يرجع إلى ذاته، لأنه يعلم ذاته بذاته، فيكون العلم والعالم والمعلوم واحداً. وإنما يعلم غيره من ذاته، لأنه يعلم ذاته مبدأ كل موجود، فيعلم سائر الموجودات من ذاته على سبيل التبعية، فلا يوجب ذلك كثرة في ذاته.

وزعموا أن نسبة علم الواحد، وهو ذاته، إلى كثرة المعلومات، كنسبة علم الحاسب مثلاً، حيث يقال له: ما ضعف الاثنين وضعف وضعفه وضعف ضعفه، وهكذا مثلاً عشر مرات؟ فإنه قبل أن يفصل تلك الأضعاف في ذاته. فله يقين حاصل بأنه عالم به. وذلك اليقين هو مبدأ التفصيل إذا اشتغل بتفصيله، وذلك اليقين خطة واحدة لها نسبة إلى سائر أضعاف الاثنين، بل إلى تضعيفاته التي لا نهاية لها، من غير تفصيل. وكما أن تضعيف الاثنين يستمر إلى كثرة على التدرج، فكذلك الموجودات أيضاً عندهم فيها ترتيب، ولا كثرة في أولها، ثم يتداعى إلى الكثرة على التدرج.

وشرح ذلك وإبطاله مما يطول، وليستظهر في ذلك بما ذكرناه في كتاب (التهافت) ^(١) فإنه كالخارج عن مقصود هذا الكتاب، والله أعلم.

(١) طبع بالشرقي.

الفن الثالث

في اللواحق والتكميلات

وفيه فصول ثلاثة

- الفصل الأول: في بيان أن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين.
- الفصل الثاني: في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين.
- الفصل الثالث: في بيان أن الصفات والأسامي المطلقة على الله تعالى هل تقف على التوقيف أم تجوز بطريق العقل؟

الفصل الأول

في بيان أن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين بل ورد التوقيف بأسماء سواها، إذ في رواية أخرى عن أبي هريرة، رضي الله عنه، إبدالاً لبعض هذه الأسامي بما يقرب منها، وإبدالاً بما لا يقرب. فأما الذي يقرب، فالأحد بدل الواحد، والقاهر بدل القهار، والشاكر بدل الشكور، والذي لا يقرب كالهادي والكافي والدائم والبصير والنور والمبين والجميل والصادق والمحيط والقريب والقديم والوتر والفاطر والعلّام والملك والأكرم والمدبر والرفيع وذو الطول وذو المعارج وذو الفضل والخالق.

وقد ورد أيضاً في القرآن ما ليس متفقاً عليه في الروايتين جميعاً، كالمولى والنصير والغالب والقريب والرب والناصر، ومن المضافات، كقوله تعالى: شديد العقاب، وقابل التوب، وغافر الذنب، ومولج الليل في النهار، ومولج النهار في الليل، ومخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.

وقد ورد في الخبر أيضاً السيد، إذ قال رجل لرسول الله ﷺ: «يا سيد» فقال: «السيد هو الله، عز وجل»^(١). وكأنه قصد المنع من المدح في الوجه. وإلا فقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢). والديان أيضاً قد ورد، وكذا الحنان والحنان وغير ذلك مما لو تتبع في الأحاديث لوجد.

ولو جُوز اشتقاق الأسامي من الأفعال فستكثر هذه الأسامي المشتقة لكثرة الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يَكْثِفُ السُّوءَ﴾ [سورة النمل/

(١) رواه أبو داود، رقم الحديث: ٤٨٠٦ وأحمد في (المسند) (١٥٣/٣) وإسناده صحيح أي أن حقيفة السوداء لله، وأن الخلق كلهم عبيد له.

(٢) تقدم تخريجه.

الآية: ٦٢، ﴿وَيَقْلِفُ الْحَقُّ﴾ [سورة سبا / الآية: ٣٨]، ﴿وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الحج / الآية: ١٧، و٣٢ سورة السجدة / الآية: ٢٥]، و﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الإسراء / الآية: ٤]. فيشتق له من ذلك: الكاشف والقاذف بالحق والقاصل والقاضي. ويخرج ذلك عن الحصر، وفيه نظر سيأتي.

والغرض أن نبين أن الأسماء ليست هي التسعة والتسعين التي عددناها وشرحناها، ولكننا جرينا على العادة في شرح تلك الأسماء، فإنها هي الرواية المشهورة. وليست هذه التعديلات والتفصيلات المروية عن أبي هريرة في الصحيحين، إنما الذي تشتمل عليه الصحاح قوله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ، سبحانه وتعالى، تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)^(١). أما بيان ذلك وتفصيله، فلا.

وتما وقع عليه الاتفاق بين الفقهاء والعلماء من الأسماء: المريد والمتكلم والموجود والشئ والذات والأزلي والأبدي. وإن ذلك مما يجوز إطلاقه في حق الله سبحانه وتعالى. وورد في الحديث: «لا تقولوا: جاء رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، لكن قولوا: جاء شهر رمضان»^(٢). وكذلك ورد عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ما أصاب أحداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله عزي وجل همّه وحزنه، وأبدل مكانه فرحاً»^(٣). وقوله:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أحده.

(٣) رواه الإمام أحمد في (مسنده) (٣٧١٢ و٤٣١٨) وصححه ابن حبان رقم (٢٣٧٢) سوار، في الأذكار (٣٧١٢ و٤٣١٨) والحاكم في المستدرک (٥٠٩/١) وذكر الميثمي في (مجمع الزوائد) (١٣٦/١٠) وزاد نسبه لأبي يعلى والبزار.

«استأثرت به في علم الغيب عندك» يدل على أن السماء غير محصورة فيما وردت به الروايات المشهورة.

وعند هذا ربما يخطر ببالك طلب الفائدة في الحصر في تسعة وتسعين، ولا بد من ذكرها.

الفصل الثاني

في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين

وفي هذا الفصل أنظار في أمور، فلنوردتها في معرض الأسئلة

فإن قال قائل: أسماء الله، سبحانه وتعالى، هل تزيد على تسعة وتسعين أم لا؟ فإن زادت، فما معنى هذا التخصيص؟ ومن يملك ألف درهم لا يجوز أن يقول القائل: إن له تسعة وتسعين درهماً، لأن ألفاً وإن اشتمل على ذلك، ولكن تخصيص العدد بالذكر يُفهم نفي ما وراء المعدود. وإن كانت الأسماء غير زائدة على هذا العدد، فما معنى قوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»؟ فإن هذا صريح في أنه استأثر ببعض الأسماء. وكذلك قال في رمضان إنه من أسماء الله تعالى. وكذلك كان السلف يقولون: فلان أوتي الاسم الأعظم، وكان ينسب ذلك إلى بعض الأنبياء والأولياء. وذلك يدل على أنه خارج عن التسعة والتسعين.

فنقول: إن الأسماء الزائدة على تسعة وتسعين لهذه الأخبار. وأما الحديث الوارد في الحصر، فإنه يشتمل على قضية واحدة لا على قضيتين. وهو كالمملك الذي له ألف عبد، مثلاً. فيقول القائل: إن للملك تسعة وتسعين عبداً من استظهر بهم لم يقاومه الأعداء. فيكون التخصيص لأجل حصول الاستظهار بهم، إما لمزيد قوتهم، وإما لكفاية ذلك العدد في دفع الأعداء، من غير حاجة إلى زيادة، لا لاختصاص الوجود بهم.

ويُحتمل أن تكون الأسماء غير زائدة على هذا العدد. ويكون لفظ الخير مشتملاً على قضيتين:

إحدهما: أن الله تعالى تسعة وتسعين اسماً.

والثاني: أن من أحصاها دخل الجنة، حتى لو اقتصر على ذكر القضية الأولى كان الكلام تاماً، وعلى المذهب الأول لا يمكن الاقتصار على ذكر القضية الأولى.

وهذا هو الأسبق إلى الفهم من ظاهر هذا الحصر، ولكنه بعيد من وجهين: أحدهما: أن هذا يمنع أن يكون من الأسماء ما استأثر الله به في علم الغيب عنده، وفي الحديث إثبات ذلك.

والثاني: أنه يؤدي إلى أن يختص بالإحصاء نبي أو ولي ممن أوتي الاسم الأعظم حتى يتم العدد به، وإلا فيكون ما أحصى وراء ذلك ناقصاً عن العدد، أو كان الاسم خارجاً عن العدد، فيبطل به الحصر. والأظهر أن رسول الله ﷺ ذكر هذا في معرض الترغيب للجماهير في الإحصاء، والاسم الأعظم لا يعرفه الجماهير.

فإن قيل: فإذا كان الأظهر أن الأسماء الزائدة على تسعة وتسعين، فلو قدرنا، مثلاً، أن الأسماء ألف، وأن الجنة تستحق بإحصاء تسعة وتسعين منها، فهي تسعة وتسعون بأعيانها، أو تسعو وتسعون آياتها، حتى إن من بلغ ذلك المبلغ في الإحصاء استحق دخول الجنة، وحتى إن من أحصى ما رواه أبو هريرة مرة دخل الجنة، ولو أحصى أيضاً ما اشتملت الرواية الثانية عليه أيضاً دخل الجنة، إذا قدرنا أن جميع ما في الروايتين من أسماء الله تعالى.

فنقول: الأظهر أن المراد به تسعة وتسعون بأعيانها، فإنها إذا لم تتعين لم تظهر فائدة الحصر والتخصيص. فإن قول القائل: إن للملك مئة عبد من استظهر بهم لم يقاومه عدو، إنما يحسن مع كثرة عبيد الملك إذا احتص مئة من بينهم بمزيد قوة وشوكة. فأمّا إذا حصل ذلك بأي مئة كان من جملة العبيد، لم يحسن نظم الكلام.

فإن قيل: فما بال تسعة وتسعين من الأسماء اختصت بهذه القضية، مع أن الكل أسماء الله، سبحانه وتعالى؟

فنقول: الأسامي يجوز أن تتفاوت فضيلتها لتفاوت معانيها في الجلالة والشرف، فيكون تسعة وتسعون منها تجمع أنواعاً من المعاني المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها، فتختصّ بزيادة شرف.

فإن قيل: فاسم الله الأعظم داخل فيها أم لا؟ فإن لم يدخل فكيف يختصّ مزيد الشرف بما هو خارج عنها؟ وإن كان داخلاً فيها فكيف ذلك. وهي مشهورة، والاسم الأعظم يختصّ بمعرفته نبيّ أو وليّ؟ وقد قيل: إن آصف إنما جاء بعرش بلقيس لأنه كان قد أوتي الاسم الأعظم، وهو سبب كرامات عظيمة لمن عرفه.

فنقول: يحتمل أن يقال إن اسم الله الأعظم خارج عن هذا العدد الذي رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، ويكون شرف هذه الأسامي المعدودة بالإضافة إلى جميع الأسماء المشهورة عند الجماهير، لا بالإضافة إلى الأسماء التي يعرفها الأولياء والأنبياء. ويحتمل أن يقال: إنها تشتمل على اسم الله الأعظم، ولكنه مبهم فيها، لا يعرفه بعينه إلا وليّ، إذ ورد في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة / الآية: ١٦٣]، وفاطمة آل عمران: ﴿إِلَهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران / الآية: ١] ^(١). وروي أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» ^(٢).

(١) رواه أبو داود رقم (١٤٩٦) وابن ماجه (٣٨٥٥) وأحمد في (المستد) (٤٦١/٦) والبيهقي (٣٤٧٧) والدارمي (٣٣٩٧).

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٥) والبيهقي (٣٥٣٨) والنسائي (٥٤/٣) وابن ماجه (٣٨٥٨) وأحمد في (المستد) (١٢٠/٣) وصححه ابن حبان رقم (٢٣٨٢) (مبارد) والحاكم (٥٠٤-٥٠٣/١) ووافقه الذهبي وهو كما قال.

فإن قيل: فما سبب تخصيص هذا العدد من بين سائر الأعداد، ولم لم يبلغ مئة وقد قارب ذلك؟

قلنا: فيه احتمالان.

أحدهما، أن يقال: لأن المعاني الشريفة بلغت هذا المبلغ، لا لأن العدد مقصود، ولكن وافقت المعاني هذا العدد، كما أن الصفات عند أهل السنة سبع، وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا لأنها سبع، ولكن صفات الربوبية لا تتم إلا بها.

والثاني، وهو الأظهر، أن السبب فيه بيان ما ذكره رسول الله ﷺ حيث قال: «مئة إلا واحدة، والله وتر يحب الوتر» ^(١). وإلا أنّ هذا يدلّ على أن هذه الأسامي هي بالتسمية الإرادية الاختيارية، لا من حيث انحصار صفات الشرف فيها، لأن ذلك يكون لذاته لا بالإرادة. ولا يقول أحد: إنّ صفات الله، سبحانه وتعالى، سبع لأنه وتر ويحبّ الوتر، بل ذلك لذاته وإلهيته، والعدد فيه غير مقصود. بل ليس وجود ذلك بقصد قاصد وإرادة مريد حتى يقصد الوتر دون غيره، وهذا يكاد يؤيد الاحتمال الذي ذكرناه، وهو أنّ الأسامي التي سَمَّى الله ﷻ، سبحانه وتعالى، بها نفسه هي تسعة وتسعون لا غير، وأنه إنما لم يجعلها مئة، لأنه يحبّ الوتر. وسنشير إلى ما يؤيد هذا الاحتمال.

فإن قيل: فهذه الأسماء التسعة والتسعون هل عدّها رسول الله ﷺ وأحصاها قصداً إلى جمعها، أو تركّها جمعها إلى من يلتقطها من الكتاب والسنة والأخبار الدالة عليه؟

فنقول: الأظهر، وهو الأشهر، أن ذلك مما أحصاه رسول الله ﷺ، وجمعها قصداً إلى جمعها وتعليمها، على ما نقله أبو هريرة، رضي الله عنه، إذ ظاهر الكلام

(١) تقدم تخريجه.

هو الترغيب في الإحصاء. وذلك مما يعسر على الجماهير إذا لم يذكره رسول الله على سبيل الجمع. وهذا يدل على صحة رواية أبي هريرة رضي الله عنه. وقد قبل الجماهير روايته المشهورة التي أجريننا شرحنا على متوالها.

وقد تكلم أحمد البيهقي على رواية أبي هريرة، وذكر أنها من رواية مَنْ فيه ضعف. وأشار أبو عيسى الترمذي في مسنده إلى شيء من ذلك. ويدل على ضعف هذه الرواية، سوى ما ذكره المحدثون، ثلاثة أمور:

أحدها: اضطراب الرواية عن أبي هريرة، إذ عنه روايتان، وبينهما تباين ظاهر في الإبدال والتغيير.

والثاني: أن روايته ليست تحتل على ذكر الحنان والمنان ورمضان وجملة من الأسامي التي وردت الأخبار بها.

والثالث: أن الذي أورد في الصحيح هذا القدر، وهو قوله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»^(١).

وأما ذكر الأسامي، فلم تورّد في الصحيح، بل وردت به رواية غريبة، وفي إسناده ضعف. وهذا القدر الظاهر يدل على أن الأسامي لا تزيد على هذا العدد. وإنما حملنا على الميل عن الظاهر خروج بعض هذه الأسامي عن رواية أبي هريرة. فإن ضَعَفْنَا الرواية التي فيها عدد الأسامي اندفع عنها جملة من الإشكالات.

فإننا نقول: الأسامي هي تسعة وتسعون فقط، سَمَى الله سبحانه وتعالى، بها نفسه، ولم يكملها مئة، لأنه وتر يحب الوتر. ويدخل في جملتها الحنان والمنان وغيرهما. ولا يمكن معرفة جميعها إلا بالبحث في الكتاب والسنة، إذ يصح جملة منها في كتاب الله، سبحانه وتعالى، وجملة في الأخبار. ولم أعرف أحداً من العلماء اعتنى بطلب ذلك وجمعه سوى رجل من حُفَظَا المغرب يقال له: علي بن حزم^(٢)، فإنه

(١) تقدم تخريجه.

(٢) علي بن حزم: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ وتوفي ٤٥٦هـ. من مؤلفاته (أهمل) و(المفصل في الملل والنحل).

قال رحمه الله: «صحّ عندي قريب من ثمانين اسماً يشتمل عليها الكتاب والصحاح من الأخبار، والباقي ينبغي أن يطلب من الأخبار بطريق الاجتهاد». وأظن أنه لم يبلغه الحديث الذي فيه عدد الأسامي، وإن كان بلغه، فكأنه اشتضعف إسناده، إذ عدل عنه إلى الأخبار الواردة في الصحاح، وإلى التقاط ذلك منها. وعلى هذا، فمن أحصاها، أي جمعها وحفظها، نال تعباً شديداً في اجتهاده، فبالحرى أن يدخل الجنة، وإلا فإحصاء ما وردت الرواية به مرة واحدة سهل على اللسان. نعم، قد ورد في بعض الألفاظ الصحاح: «من حفظها دخل الجنة»^(١). والحفظ يحوج إلى مزيد تعب. فهذا ما يظهر لي من الاحتمالات في هذا الحديث. وأكثر مما لم يتعرض له، وهي أمور اجتهادية لا تعلم إلا بتخمين، فإنها خارجة عن مجاري العقول والله أعلم.

(١) تقدم تخريجه.

الفصل الثالث

في أن الاسامي والصفات المطلقة على الله، عز وجل، هل تقف على

التوقيف أم تجوز بطريق العقل

والذي مال إليه القاضي أبو بكر^(١) أن ذلك جائز إلا ما منع منه الشرع أو أشعر بما يستحيل معناه على الله سبحانه وتعالى. فأما ما لا مانع فيه، فإنه جائز. والذي ذهب إليه الأشعري أن ذلك موقوف على التوقيف، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه إلا إذا أذن فيه. والمختار عندنا أن نفصل ونقول: كل ما يرجع إلى الاسم فذلك موقوف على الإذن، وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على الإذن، بل الصادق منه مباح دون الكاذب. ولا يفهم هذا إلا بعد فهم الفرق بين الاسم والوصف.

فنقول: الاسم هو اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى. فزيد، مثلاً، اسمه زيد، وهو في نفسه أبيض وطويل. فلو قال له قائل: يا طويل يا أبيض، فقد دعاه بما هو موصوف به وصدق، ولكنه عدل عن اسمه، إذ اسمه زيد، دون الطويل والأبيض. وكونه طويلاً أبيض لا يدل على أن الطويل اسمه، بل تسميتنا الولد قاسماً وجامعاً لا يدل على أنه موصوف بمعاني هذه الأسماء، بل دلالة هذه الأسماء، وإن كانت معنوية، عليه، كدلالة قولنا: زيد وعيسى وما لا معنى له. بل إذا سمينا عبد الملك فلسنا نعني به أنه عبد الملك، ولذلك نقول: عبد الملك اسم مفرد، كعيسى وزيد، وإذا ذكر في معرض الوصف كان مركباً وكذلك عبد الله، لذلك يُجمع فيقال: عبادلة، ولا يقال: عباد الله.

(١) هو الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب البصري الباقلاني متكلم على مذهب الأشعري وكان أوحده زمانه موصوفاً بمجودة الاستنباط وسرعة الجواب، ولد بالبصرة سنة ٣٣٨ هـ وتوفي ببغداد ٤٠٣ هـ.

وإذا فهمت معنى الاسم فاسم كل أحد ما سُمي به نفسه أو سُمي به ولَّيه من أبيه أو سيده. والتسمية، أعني وضع الاسم، تصرف في المسمى، ويستدعي ذلك ولاية. والولاية للإنسان على نفسه أو على عبده أو على ولده. فلذلك تكون التسميات إلى هؤلاء، ولذلك لو وضع غير هؤلاء اسماً على مسمى ربما أنكره المسمى وغضب على المسمى. وإذا لم يكن لنا أن نسمي إنساناً، أي لا نضع له اسماً، فكيف نضع لله تعالى اسماً؟ وكذلك أسماء رسول الله ﷺ، معدودة وقد عدّها وقال: «إن لي أسماء: أحمد ومحمد والمقفي والمأحي والعاقب ونبي التوبة ونبي الرحمة ونبي الملحمة»^(١). وليس لنا أن نزيد على ذلك في معرض التسمية، بل في معرض الإخبار عن وصفه، فيجوز أن نقول إنه عالم ومرشد ورشيد وهادي وما يجري مجراه، كما نقول لزيد إنه أبيض طويل، لا في معرض التسمية، بل في معرض الإخبار عن صفته. وعلى الجملة فهذه مسألة فقهية، إذ هو نظر في إباحة لفظ وتحريمه.

فنقول: أما الدليل على المنع من وضع اسم الله، سبحانه وتعالى، هو المنع من وضع اسم لرسول الله ﷺ لم يسم به نفسه ولا سُمي به ربه تعالى ولا أبواه. وإذا منع في حق الرسول ﷺ بل في حق آحاد الخلق، فهو في حق الله أولى. وهذا نوع قياسي فقهي بُني على مثله الأحكام الشرعية.

وأما دليل إباحة الوصف، فهو أنه خير عن أمر. والخير ينقسم إلى صدق وكذب. والشرع قد دل على تحريم الكذب في الأصل، فالكذب حرام إلا بعارض، ودل على إباحة الصدق، فالصدق حلال إلا بعارض. وكما أنه يجوز لنا أن نقول في زيد: إنه موجود، فكذلك في حق الله تعالى، ورد به الشرع أو لم يرد. ونقول: إنه قديم، وإن قدرنا أن الشرع لم يرد به. وكما أننا لا نقول لزيد: إنه طويل أشقر، لأن ذلك ربما يبلغ زيدا فيكرهه، لأن فيه إيهام نقص، فكذلك لا نقول في حق الله،

(١) رواه البخاري (٤٠٤/٦) ومسلم رقم (٢٣٥٤) والموطأ (١٠٠٤/٢) والترمذي رقم (٢٨٤٢).

سبحانه وتعالى، ما يوهم نقصاً البتة. فأنما ما لا يوهم نقصاً، أو يدلّ على مدح، فذلك مطلق ومباح، بالدليل الذي أباح الصدق مع السلامة عن العوارض المحرمة. ولذلك قد يُمنع من إطلاق لفظ، فإذا قرّنته جوّزناه. فلا يجوز أن يقال لله، سبحانه وتعالى: يا زارع، يا حارث! ويجوز أن يقال: من وطئ فأمّنى، فليس هو الحارث، وإنما الله، تعالى وتقدس، هو الحارث. ومن بثّ البذر فليس هو الزارع، إنما الله هو الزارع. ومن رمى فليس هو الرامي، وإنما الله هو الرامي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال / الآية: ١٧]. ولا نقول لله، سبحانه وتعالى: يا مُدِلّ! ونقول: يا مُعِزّ، يا مُدِلّ! فإنه إذا جمع بينهما كان وصف مدح، إذ يدلّ على أن طرفي الأمور بيديه.

وكذلك في الدعاء، ندعو الله، سبحانه وتعالى، بأسمائه الحسنى كما أمرنا به، وإذا جاوزنا الأسماء دعوانا بصفات المدح والجلال. فلا نقول: يا موجود، يا محرّك، يا مسكّن! بل نقول: يا مقبل العشرات، يا منزل البركات، يا ميسر كلّ عسير! وما يجري مجراه. كما أننا إذا نادينا إنساناً، فإما أن نناديه باسمه أو بصفة من صفات المدح كما نقول يا شريف يا فقيه، ولا نقول: يا طويل، يا أبيض! إلا إذا قصدنا الاستحقار. وأما إذا استخبرنا عن صفاته، أخبرنا بأنه أبيض اللون، أسود الشعر. ولا يُذكر ما يكرهه، إذا بلغه، وإن كان صدقاً، لعارض الكراهة، وإنما يكره ما يقدر فيه نقصاً.

فكذلك، إذا استخبرنا عن محرّك الأشياء ومسكنها ومسودّها ومبيّضها، قلنا: هو الله سبحانه وتعالى. ولا تتوقف في نسبة الأفعال والأوصاف إليه إلى إذن وارد فيه على الخصوص، بل الإذن قد ورد شرعاً في الصدق، إلّا ما يستثنى عنه بعارض. والله تعالى هو الموجود والموجد والمظهر والمخفي والمُسعد والمُشقي والمُبقي والمُفني، وكلّ ذلك يجوز إطلاقه، وإن لم يرد فيه توقيف.

فإن قيل: فليّمْ لا يجوز أن يقال له: العارف والعاقل والفطن والذكي وما يجري مجراه؟ قلنا: إنّما المانع من هذا وأمثاله ما فيه من إيهامات. وما فيه إيهام لا يجوز إلّا بالإذن، كالصبور والحليم والرحيم، فإنّ فيه إيهاماً، ولكنّ الإذن قد ورد به، وأما هذا، فلم يرد به الإذن. والإيهام فيه أنّ العاقل هو الذي له معرفة تعقله، أي تمنعه، إذ يقال: عَقَلَهُ عَقْلُهُ. والفطنة والذكاء يشعران بسرعة الإدراك لما غاب عن المدرك. والمعرفة قد تُشعر بسبق نكرة، فلا يمنع عن إطلاق شيء منه إلّا شيء مما ذكرناه. فإن حَقَّقَ لفظ لا يوهم أصلاً بين المتفاهمين، ولم يرد الشرع بالمنع منه، فإننا نجوز إطلاقه قطعاً. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

فهرس أبحاث الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢-١
مقدمة المؤلف	٤-٣
صدر الكتاب	٦-٥
الفن الأول	٧
(في السوابق والمقدمات)	
الفصل الأول	٢٣-٨
في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية	
الفصل الثاني	٢٦-٢٤
في بيان الأسماء المتقاربة في المعنى، وأنها هل يجوز أن تكون مترادفة لا تدل إلا على معنى واحد أو لا بد أن تختلف مفهوماتها	
الفصل الثالث	٢٨-٢٧
في الاسم الواحد الذي له معان مختلفة وهو مشترك بالإضافة إليها	
الفصل الرابع	٤٢-٢٩
في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه	
الفن الثاني	٤٣
في المقاصد والغايات	

الفصل الأول	١٢٥-٤٤
في شرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين	
خاتمة هذا الفصل واعتذار	١٣٢-١٢٦
الفصل الثاني من المقاصد والغايات	١٣٥-١٣٣
في بيان وجه رجوع هذه الأسماء الكثيرة إلى ذات واسع صفات على مذاهب أهل السنة	
الفصل الثالث	١٣٧-١٣٦
في بيان كيفية رجوع ذلك كله إلى ذات واحدة على مذهب المعتزلة والفلاسفة	
الفن الثالث	١٣٨
في اللواحق والتكميلات	
الفصل الأول	١٤١-١٣٩
في بيان أن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين	
الفصل الثاني	١٤٧-١٤٢
في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين وفي هذا الفصل أنظار في أمور	
الفصل الثالث	١٥١-١٤٨
في أن الأسماء والصفات المطلقة على الله عز وجل هل تقف على التوقيف أم تجوز بطرق العقل	

Ɓ Ɗ Ƴ ƴ Ƶ ƶ Ʒ Ƹ ƹ ƺ ƻ Ƽ ƾ ƿ ƻ̥ ƻ̦ ƻ̧ ƻ̨ ƻ̩ ƻ̪ ƻ̫ ƻ̬ ƻ̭ ƻ̮ ƻ̯ ƻ̰ ƻ̱ ƻ̲ ƻ̳ ƻ̴ ƻ̵ ƻ̶ ƻ̷ ƻ̸ ƻ̹ ƻ̺ ƻ̻ ƻ̼ ƻ̽ ƻ̾ ƻ̿ Ƽ̃ Ƽ̄ Ƽ̅ Ƽ̆ Ƽ̇ Ƽ̈ Ƽ̉ Ƽ̊ Ƽ̋ Ƽ̌ Ƽ̍ Ƽ̎ Ƽ̏ Ƽ̐ Ƽ̑ Ƽ̒ Ƽ̓ Ƽ̔ Ƽ̕ Ƽ̖ Ƽ̗ Ƽ̘ Ƽ̙ Ƽ̚ Ƽ̛ Ƽ̜ Ƽ̝ Ƽ̞ Ƽ̟ Ƽ̠ Ƽ̡ Ƽ̢ Ƽ̣ Ƽ̤ Ƽ̥ Ƽ̦ Ƽ̧ Ƽ̨ Ƽ̩ Ƽ̪ Ƽ̫ Ƽ̬ Ƽ̭ Ƽ̮ Ƽ̯ Ƽ̰ Ƽ̱ Ƽ̲ Ƽ̳ Ƽ̴ Ƽ̵ Ƽ̶ Ƽ̷ Ƽ̸ Ƽ̹ Ƽ̺ Ƽ̻ Ƽ̼ Ƽ̽ Ƽ̾ Ƽ̿ Ʒ̃ Ʒ̄ Ʒ̅ Ʒ̆ Ʒ̇ Ʒ̈ Ʒ̉ Ʒ̊ Ʒ̋ Ǯ Ʒ̍ Ʒ̎ Ʒ̏ Ʒ̐ Ʒ̑ Ʒ̒ Ʒ̓ Ʒ̔ Ʒ̕ Ʒ̖ Ʒ̗ Ʒ̘ Ʒ̙ Ʒ̚ Ʒ̛ Ʒ̜ Ʒ̝ Ʒ̞ Ʒ̟ Ʒ̠ Ʒ̡ Ʒ̢ Ʒ̣ Ʒ̤ Ʒ̥ Ʒ̦ Ʒ̧ Ʒ̨ Ʒ̩ Ʒ̪ Ʒ̫ Ʒ̬ Ʒ̭ Ʒ̮ Ʒ̯ Ʒ̰ Ʒ̱ Ʒ̲ Ʒ̳ Ʒ̴ Ʒ̵ Ʒ̶ Ʒ̷ Ʒ̸ Ʒ̹ Ʒ̺ Ʒ̻ Ʒ̼ Ʒ̽ Ʒ̾ Ʒ̿ Ʒ͆ Ʒ͇ Ʒ͈ Ʒ͉ Ʒ͊ Ʒ͋ Ʒ͌ Ʒ͍ Ʒ͎ Ʒ͏ Ʒ͐ Ʒ͑ Ʒ͒ Ʒ͓ Ʒ͔ Ʒ͕ Ʒ͖ Ʒ͗ Ʒ͘ Ʒ͙ Ʒ͚ Ʒ͛ Ʒ͜ Ʒ͝ Ʒ͞ Ʒ͟ Ʒ͠ Ʒ͡ Ʒ͢ Ʒͣ Ʒͤ Ʒͥ Ʒͦ Ʒͧ Ʒͨ Ʒͩ Ʒͪ Ʒͫ Ʒͬ Ʒͭ Ʒͮ Ʒͯ ƷͰ Ʒͱ ƷͲ Ʒͳ Ʒʹ Ʒ͵ ƷͶ Ʒͷ Ʒ͸ Ʒ͹ Ʒͺ Ʒͻ Ʒͼ Ʒͽ Ʒ; ƷͿ ƷͿ͂ ƷͿ̓ ƷͿ̈́ ƷͿͅ ƷͿ͆ ƷͿ͇ ƷͿ͈ ƷͿ͉ ƷͿ͊ ƷͿ͋ ƷͿ͌ ƷͿ͍ ƷͿ͎ ƷͿ͏ ƷͿ͐ ƷͿ͑ ƷͿ͒ ƷͿ͓ ƷͿ͔ ƷͿ͕ ƷͿ͖ ƷͿ͗ ƷͿ͘ ƷͿ͙ ƷͿ͚ ƷͿ͛ ƷͿ͜ ƷͿ͝ ƷͿ͞ ƷͿ͟ ƷͿ͠ ƷͿ͡ ƷͿ͢ ƷͿͣ ƷͿͤ ƷͿͥ ƷͿͦ ƷͿͧ ƷͿͨ ƷͿͩ ƷͿͪ ƷͿͫ ƷͿͬ ƷͿͭ ƷͿͮ ƷͿͯ ƷͿͰ ƷͿͱ ƷͿͲ ƷͿͳ ƷͿʹ ƷͿ͵ ƷͿͶ ƷͿͷ ƷͿ͸ ƷͿ͹ ƷͿͺ ƷͿͻ ƷͿͼ ƷͿͽ ƷͿ; ƷͿͿ ƷͿͿ͂ ƷͿͿ̓ ƷͿͿ̈́ ƷͿͿͅ ƷͿͿ͆ ƷͿͿ͇ ƷͿͿ͈ ƷͿͿ͉ ƷͿͿ͊ ƷͿͿ͋ ƷͿͿ͌ ƷͿͿ͍ ƷͿͿ͎ ƷͿͿ͏ ƷͿͿ͐ ƷͿͿ͑ ƷͿͿ͒ ƷͿͿ͓ ƷͿͿ͔ ƷͿͿ͕ ƷͿͿ͖ ƷͿͿ͗ ƷͿͿ͘ ƷͿͿ͙ ƷͿͿ͚ ƷͿͿ͛ ƷͿͿ͜ ƷͿͿ͝ ƷͿͿ͞ ƷͿͿ͟ ƷͿͿ͠ ƷͿͿ͡ ƷͿͿ͢ ƷͿͿͣ ƷͿͿͤ ƷͿͿͥ ƷͿͿͦ ƷͿͿͧ ƷͿͿͨ ƷͿͿͩ ƷͿͿͪ ƷͿͿͫ ƷͿͿͬ ƷͿͿͭ ƷͿͿͮ ƷͿͿͯ ƷͿͿͰ ƷͿͿͱ ƷͿͿͲ ƷͿͿͳ ƷͿͿʹ ƷͿͿ͵ ƷͿͿͶ ƷͿͿͷ ƷͿͿ͸ ƷͿͿ͹ ƷͿͿͺ ƷͿͿͻ ƷͿͿͼ ƷͿͿͽ ƷͿͿ; ƷͿͿͿ ƷͿͿͿ͂ ƷͿͿͿ̓ ƷͿͿͿ̈́ ƷͿͿͿͅ ƷͿͿͿ͆ ƷͿͿͿ͇ ƷͿͿͿ͈ ƷͿͿͿ͉ ƷͿͿͿ͊ ƷͿͿͿ͋ ƷͿͿͿ͌ ƷͿͿͿ͍ ƷͿͿͿ͎ ƷͿͿͿ͏ ƷͿͿͿ͐ ƷͿͿͿ͑ ƷͿͿͿ͒ ƷͿͿͿ͓ ƷͿͿͿ͔ ƷͿͿͿ͕ ƷͿͿͿ͖ ƷͿͿͿ͗ ƷͿͿͿ͘ ƷͿͿͿ͙ ƷͿͿͿ͚ ƷͿͿͿ͛ ƷͿͿͿ͜ ƷͿͿͿ͝ ƷͿͿͿ͞ ƷͿͿͿ͟ ƷͿͿͿ͠ ƷͿͿͿ͡ ƷͿͿͿ͢ ƷͿͿͿͣ ƷͿͿͿͤ ƷͿͿͿͥ ƷͿͿͿͦ ƷͿͿͿͧ ƷͿͿͿͨ ƷͿͿͿͩ ƷͿͿͿͪ ƷͿͿͿͫ ƷͿͿͿͬ ƷͿͿͿͭ ƷͿͿͿͮ ƷͿͿͿͯ ƷͿͿͿͰ ƷͿͿͿͱ ƷͿͿͿͲ ƷͿͿͿͳ ƷͿͿͿʹ ƷͿͿͿ͵ ƷͿͿͿͶ ƷͿͿͿͷ ƷͿͿͿ͸ ƷͿͿͿ͹ ƷͿͿͿͺ ƷͿͿͿͻ ƷͿͿͿͼ ƷͿͿͿͽ ƷͿͿͿ; ƷͿͿͿͿ ƷͿͿͿͿ͂ ƷͿͿͿͿ̓ ƷͿͿͿͿ̈́ ƷͿͿͿͿͅ ƷͿͿͿͿ͆ ƷͿͿͿͿ͇ ƷͿͿͿͿ͈ ƷͿͿͿͿ͉ ƷͿͿͿͿ͊ ƷͿͿͿͿ͋ ƷͿͿͿͿ͌ ƷͿͿͿͿ͍ ƷͿͿͿͿ͎ ƷͿͿͿͿ͏ ƷͿͿͿͿ͐ ƷͿͿͿͿ͑ ƷͿͿͿͿ͒ ƷͿͿͿͿ͓ ƷͿͿͿͿ͔ ƷͿͿͿͿ͕ ƷͿͿͿͿ͖ ƷͿͿͿͿ͗ ƷͿͿͿͿ͘ ƷͿͿͿͿ͙ ƷͿͿͿͿ͚ ƷͿͿͿͿ͛ ƷͿͿͿͿ͜ ƷͿͿͿͿ͝ ƷͿͿͿͿ͞ ƷͿͿͿͿ͟ ƷͿͿͿͿ͠ ƷͿͿͿͿ͡ ƷͿͿͿͿ͢ ƷͿͿͿͿͣ ƷͿͿͿͿͤ ƷͿͿͿͿͥ ƷͿͿͿͿͦ ƷͿͿͿͿͧ ƷͿͿͿͿͨ ƷͿͿͿͿͩ ƷͿͿͿͿͪ ƷͿͿͿͿͫ ƷͿͿͿͿͬ ƷͿͿͿͿͭ ƷͿͿͿͿͮ ƷͿͿͿͿͯ ƷͿͿͿͿͰ ƷͿͿͿͿͱ ƷͿͿͿͿͲ ƷͿͿͿͿͳ ƷͿͿͿͿʹ ƷͿͿͿͿ͵ ƷͿͿͿͿͶ ƷͿͿͿͿͷ ƷͿͿͿͿ͸ ƷͿͿͿͿ͹ ƷͿͿͿͿͺ ƷͿͿͿͿͻ ƷͿͿͿͿͼ ƷͿͿͿͿͽ ƷͿͿͿͿ; ƷͿͿͿͿͿ ƷͿͿͿͿͿ͂ ƷͿͿͿͿͿ̓ ƷͿͿͿͿͿ̈́ ƷͿͿͿͿͿͅ ƷͿͿͿͿͿ͆ ƷͿͿͿͿͿ͇ ƷͿͿͿͿͿ͈ ƷͿͿͿͿͿ͉ ƷͿͿͿͿͿ͊ ƷͿͿͿͿͿ͋ ƷͿͿͿͿͿ͌ ƷͿͿͿͿͿ͍ ƷͿͿͿͿͿ͎ ƷͿͿͿͿͿ͏ ƷͿͿͿͿͿ͐ ƷͿͿͿͿͿ͑ ƷͿͿͿͿͿ͒ ƷͿͿͿͿͿ͓ ƷͿͿͿͿͿ͔ ƷͿͿͿͿͿ͕ ƷͿͿͿͿͿ͖ ƷͿͿͿͿͿ͗ ƷͿͿͿͿͿ͘ ƷͿͿͿͿͿ͙ ƷͿͿͿͿͿ͚ ƷͿͿͿͿͿ͛ ƷͿͿͿͿͿ͜ ƷͿͿͿͿͿ͝ ƷͿͿͿͿͿ͞ ƷͿͿͿͿͿ͟ ƷͿͿͿͿͿ͠ ƷͿͿͿͿͿ͡ ƷͿͿͿͿͿ͢ ƷͿͿͿͿͿͣ ƷͿͿͿͿͿͤ ƷͿͿͿͿͿ

[illegible][illegible][illegible]

यथैव

dōng ōng āng ēng ēng

$\frac{d}{dt} \ln \left(\frac{\bar{A}}{A_0} \right) = -\lambda$

(mh@ghazali.org) : 8 Å ĩ ħ / Å ħ http://www.ghazali.org) : 3 ħ ħ ħ